سورة المائدة

هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدنية بناء على المشهور من أن المدنى ما نزل بعد الهجرة ولو فى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر : أن قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع » .

وآياتها مائة وعشرون فى العدالكوفى ، ومائة وثنتان وعشرون فى العد الحجازى، ومائة وثلاث وعشرون فى العد البصرى .

ووجه التناسب بينها و بين ماقبلها من وجوه :

(١) إن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا ، فالصريح عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة .

(٢) إن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشىء مما قبلها .

(٣) إن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى مع ذكر شىء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل به فى آخرها .

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة أن الأولى بدئت بيا أيها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المكى ، والثانية بيا أيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدنى المتأخر عن الأول .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) .

شرح المفردات

الوفاء والإيفاء: الاتيان بالشيء وافيا لانقص فيه، قال تعالى : «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ» والعقود: واحدها عقد، وهو فى الأصل ضد الحل ثم أطلق على الجمع بين أطراف الشيء وربط بعضها ببعض ، ويستعمل فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ، ويقال عقد اليمين وعقد النكاح أى أبرمه كما قال تعالى « وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ» والبهيمة : مالانطق له لما فى صوته من الإبهام ، وخص فى العرف بما عدا السباع والطير ، والأنعام : البقر والإبل والغنم ، الحرم : جمع حرام ، وهو المحرم بالحج أو العمرة ، وشعائر الله معالم دينه ، وغلب فى مناسك الحج واحدها شعيرة ، والهدى ، وهو ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام ليذبح هنالك ، وهو من النسك ، والقلائد : واحدها قلادة وهو ما يعلق فى العنق ، وكانوا يقلدون الإبل من الهدى بنعل أو حبل أو لحاء شجر ليعرف فلا يتعرض له أحد ، آمين أى قاصدين ، وفضلا أى ربحا فى تجارتهم ، ورضوانا أى رضا من الله يحول بينهم و بين عقوبته فى الدنيا ، يجرمنكم: من جرمه الشيء أى حمله عليه وجعله يجرمه أى يكسبه و يفعله ، وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة ، والشنآن : البغض مطلقا ، أوالذى يصحبه التقزز من المبغوض .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد بها إلى عباده أى ما أحل وما حرم وما فرض وما حدّ فى القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث ، وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب عقد بين الله و بين العبد ، وعقد بين العبد ونفسه ، وعقد بينه و بين غيره من البشر .

وكل واحد منها إما أن يوجبه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه ببديهة العقل أو بأدنى نظر ويدل على ذلك قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى » وإما أن يوجبه الشرع وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة (أوفوا بالعقود) أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما كالعقد على أكل شىء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها و بدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقال :

(أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى أحل الله لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الظباء و بقر الوحش ونحوهما ، إلا ما حرم فيما سيتلى عليكم فى الآية الثالثة من هذه السورة (حرمت عليكم الميتة والدم) الخ .

(غير محلى الصيد وأنتم حرم) أى أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلى الصيد الذى حرمه الله عليكم : أى لا تجعلوه حلالا باصطياده أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحج أو العمرة أو كليهما أو داخلون فى أرض الحرم فلا يحل الصيد لمن كان

فى أرض الحرم ولو لم يكن محرما ولا للمحرم بالحج أو العمرة وإن كان فى خارج حدود الحرم بأن نوى الدخول فى هذا النسك وبدأ بأعماله كالتلبية ولبس المخيط .

والخلاصة — أحلت لكم هذه الأشياء غير محلى الاصطياد ولا أكل الصيد فى الإحرام .

(إن الله يحكم ما يريد) الحكم القضاء أى إن الله جل ثناؤه يقضى فى خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه كما شاء على حسب الحكم والمصالح التى يعلمها سبحانه فأوفوا بعقوده وعهوده ولا تنكثوها ولا تنقضوها .

(يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) شعائر الله ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال كمناسك الحج وسائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم .

والمعنى — يأيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالا لكم تتصرفون فيها كما تشاءون بل اعملوا بما بينه لكم ، ولا تتهاونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها وتصدوا الناس عن الحج فى أشهر الحج .

(ولا الشهر الحرام) المراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والمحرم أى ولا تحلو الشهر الحرام بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من المشركين كما روى عن ابن عباس وقتادة .

(ولا الهدى) أى ولا تحلوا الهدى الذى يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقربا إلى الله ، وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقته أو حبسه عند من أخذه .

(ولا القلائد) ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهى البدن ، وكأنه قال لا تحلوا الهدى مقلدا ولا غير مقلد ، وخص المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه .

(ولا آمين البيت الحرام) أى ولا تحلوا قتال قاصدى البيت الحرام لزيارته ، تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان .

(يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى يطلبون ربحا فى التجارة ورضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته فى الدنيا لئلا يحل بهم ماحل بغيرهم فى عاجل دنياهم .

وهذا كلام مع المشركين ، كما روى عن قتادة أنه قال : هم المشركون يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم ، وفى رواية أخرى عنه : والرضوان الذى يبتغون أن يصلح لهم معايشهم فى الدنيا وألا يعجل لهم العقوبة .

(وإذا حللتم فاصطادوا) أى إذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة أو من أرض الحرم فاصطادوا إن شئتم فإنما حرم عليكم الصيد فى أرض الحرم وفى حال الإحرام فقط .

وهذا تصريح بمفهوم قوله فى الآية السابقة (غير محلى الصيد وأنتم حرم) .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى ولا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام ، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية ، فنهى المؤمنون أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع وهو العام الذى نزلت فيه هذه السورة لأجل اعتدائهم السابق .

ولما كان اعتداء قوم على قوم لا يحصل إلا بالتعاون قفى على النهى عن الاعتداء بقوله :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) البر : التوسع فى فعل الخير ، والتقوى : اتقاء مايضر صاحبه فى دينه أو دنياه ، والإثم : كل ذنب ومعصية ، والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف فى المعاملة والخروج عن العدل فيها ، وفى الحديث « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن ، وروى أحمد والدارمى عن وابصة بن معبد الجهنى أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم » وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم بما فى نفسه وأجابه

فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر و إن أفتاك الناس وأفتوك » .

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية فى القرآن ، إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات فى دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التى يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره ، ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا فى حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب (التعاون على البر والتقوى) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا.

(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى اتقوا الله بالسير على سننه التى بينها لكم فى كتابه وفى نظم خلقه حتى لا يصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته ، فهو شديد العقاب لمن لم يتقه باتباع شرعه ومراعاة سننه فى خلقه، إذ لا محاباة ولا هوادة فى عقابه، فهو لم يأمر بشىء إلا إذا كان نافعا ولم ينه عن شىء إلا إذا كان ضارا ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأن لذلك تأثيرا فى خلق الإنسان وعقائده وأعماله وكل ذلك مما يوقعه فى الغواية و ينتهى به إلى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء فى بعض الآيات التصريح بذلك ، وفى بعضها التصريح بأحدهما كقوله فى عذاب الأمم فى الدنيا « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) .

الإيضاح

هذا شروع فى بيان المحرمات التى أشير إليها فى أول السورة بقوله (إلا ما يتلى عليكم) وهى عشرة أنواع :

(الأول الميتة) ويراد بها عرفا مامات حتف أنفه أى بدون فعل فاعل ، ويراد بها فى عرف الشرع ما مات ولم يذكه الإنسان لأجل أكله ، والحكمة فى التحريم :

(١) استقذار الطباع السليمة لها .

(٢) إن فى أكلها مهانة تنافى عزة النفس وكرامتها .

(٣) الضرر الذى ينشأ من أكلها سواء كانت قد ماتت بمرض أو شدة ضعف أو بجراثيم (ميكروبات) انحلت بها قواها .

(٤) تعويد المسلم ألا يأكل إلا مما كان له قصد فى إزهاق روحه .

(الثانى الدم) والمراد به الدم المسفوح : أى المائع الذى يسفح ويراق من الحيوان وإن جمد بعد ذلك ، بخلاف المتجمد طبيعة كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة فإنه لا يسمى مسفوحا .

وحكمة تحريم الدم الضرر والاستقذار أيضا ، أما الضرر فلأنه عسر الهضم جد العسر ويحمل كثيرا من المواد العفنة التى تنحل من الجسم ، وهى فضلات لفظتها

الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم ، وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلى اللبن قبل شربه لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية .

(الثالث لحم الخنزير) لما فيه من الضرر والاستقذار لملازمته للقاذورات ورغبته فيها ، أما ضرره فقد أثبته الطب الحديث ، إذ أثبت أن له ضررا يأتى من أكله القاذورات ، فإن ذلك يولد الديدان الشريطية كالدودة الوحيدة ودودة أخرى تسمى الشعرة الحلزونية وهى تنشأ من أكله الفيران الميتة ، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضما لكثرة الشحم فى أليافه العضلية ، وأن المواد الدهنية التى فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب معدة آكله ويشعر بثقل فى بطنه واضطراب فى قلبه، فإن ذرعه القيء فقذف هذه المواد الخبيثة خف ضرره، وإلا تهيجت المعدة وأصيب بالإسهال، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلا وشربا وتدخينا ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة .

(الرابع ما أهل لغير الله به) الإهلال رفع الصوت ، يقال أهلّ فلان بالحج إذا رفع صوته بالتلبية له ، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة والمراد به ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من المخلوقات التى يعظمها الناس تعظيما دينيا ويتقربون إليها بالذبائح ، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم باسم اللات أو باسم العزّى .

وحكمة التحريم فى هذا أنه من عبادة غير الله ، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه وهو مما يجب إنكاره لا إقراره .

ويدخل فى ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبى أو ولى كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم وساروا على نهجهم باعا فباعا وذراعا فذراعا .

(الخامس المنخنقة) وقد روى ابن جرير فى تفسيرها أقوالا ، فعن السدى أنها التى تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق فتموت ، وعن ابن عباس والضحاك هى التى تختنق فتموت ، وفى رواية عن الضحاك هى الشاة توثق فيقتلها خناقها، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : هى التى تختنق إما فى وثاقها أو بإدخال رأسها فى الموضع الذى لا تقدر على التخلص منه فتختنق حتى تموت .

وهى بهذا المعنى من قبيل ما مات حتف أنفه من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله فهى داخلة فى الميتة ، وإنما خصها بالذكر لأن بعض العرب فى الجاهلية كانوا يأكلونها ، ولئلا يشتبه فيها بعض الناس لأن لموتها سببا معروفا .

والعبرة فى الشرع بالتذكية التى تكون بقصد الإنسان لأجل الأكل حتى يكون واثقا من صحة البهيمة التى يريد التغذى بها .

(السادس الموقوذة) الوقذ : شدة الضرب ، وشاة وقيذ وموقوذة ، والموقوذة هى التى تقتل بعصا أو بحجارة لاحد لها فتموت بلا ذكاة ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية .

والوقذ يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان ، قال صلى الله عليه وسلم: « إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شَفرته وليرح ذبيحته » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

ولما كان الوقذ محرما حرم ما قتل به، وهى تدخل فى عموم الميتة على الوجه الذى ذكرنا فإنها لم تذك تذكية شرعية ، ويدخل فى الموقوذة مارمى بالبندق (وهو نحو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها) لما روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف (الرمى بالحصا والخزف وكل يابس غير محدد سواء رمى باليد أو المخذفة أو المقلاع) وقال : إنه لا يفقأ العين ولا ينكِى العدوّ ولا يحرز صيدا ففى هذا الحديث نص على العلة وهو أنه تعذيب للحيوان وليس سببا مطردا ولا غالبا للقتل .

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما فى حكمه فإنه يصيد وينكأ، ولذا أفتى العلماء بجواز الصيد به .

(السابع المتردّية) وهى التى تقع من مكان مرتفع كجبل ، أو فى منخفض كبئر ونحوها فتموت وهى فى حكم الميتة لأنه لم يكن للانسان عمل فى إماتتها ولا قصد به إلى أكلها .

(الثامن النطيحة) وهى التى تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح من غير أن يكون للانسان عمل فى إماتتها .

(التاسع ما أكل السبع) وهو ما قتله بعض سباع الوحوش كالأسد والذئب والنمر ليأكله ، وأكله منه ليس بشرط للتحريم إذ يكفى فَرْسه إياه وقتله فى تحريمه.

وكان العرب فى الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع ، ولكنه مما تأنفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة وإن كانوا لا يخشون منه ضررا .

(إلا ما ذكيتم) أى إلا ما أدركتموه وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب المذبوح فذكيتموه وأمتموه إماتة شرعية لأجل أكله ــ وهو استثناء من جميع ما تقدم ذكره من المحرمات سوى مالا يقبل التذكية من الميتة والدم والخنزير وما أكل السبع ، وذلك هو ــ ما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة .

وخلاصة المعنى ــ ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية ، ويكفى فى صحة إدراك ذكاة ماذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف بعينه أو يضرب بذنبه ، وقد قال على كرم الله وجهه : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهى تحرك يدا أو رجلا فكلها .

(العاشر ما ذبح على النصب) والنصب واحد الأنصاب ، وهى حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة .

ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهلّ به لغير الله من حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى ، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل

لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه ، وهو من خرافات الجاهلية التى جاء الإسلام بمحوها .

وخلاصة ما تقدم - إن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان ، مادبّ منها على الأرض ، وما طار فى الهواء ، وما سبح فى البحر ، ولم يحرم إلا الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوان على اسم غير الله وهو شرك وفسق ، وبعضهم يأكل الميتة ويقول لِمَ تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ؟ ولكن فى هذا مظنة الضرر ، وفيه مهانة للنفس ، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطا بإتمام موته والإجهاز عليه بفعله هو ليذكر اسم الله عليه فلا يكون من عمل الشرك ، ولئلا يقع فى مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وفريسة السبع - إلى ما فى الموقوذة من إقرار الواقذ على القسوة وظلم الحيوان وذلك محرم شرعا .

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التى كان أهل الجاهلية يستحلونها عملا آخر من أعمالهم وخرافاتهم فقال :

(وأن تستقسموا بالأزلام) الأزلام واحدها زلَم ، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم ، لكن لا يركب فيه النصل الذى يجرح ما يرمى به من صيد وغيره ، وكانت الأزلام ثلاثة ، كتب على أحدها «أمرنى ربى» وعلى الثانى « نهانى ربى » والثالث غفل ليس عليه شىء فإذا أراد أحدهم سفرا أو غزوا أو زواجا أو بيعا أو نحو ذلك أجال «حرك» هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه «أمرنى ربى» مضى لما أراد ، وإن خرج المكتوب عليه « نهانى ربى » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الغُفْل الذى لا كتابة عليه أعاد الاستقسام ، وهو : طلب معرفة ما قسم له دون مالم يقسم بواسطة الأزلام .

أى وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما كانت تفعل العرب فى الجاهلية .

وحكمة هذا التحريم أنه من الخرافات والأوهام التى لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل يفعل ما يفعل عن غير بينة ولا بصيرة ويترك ما يترك كذلك ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم ، ومن ثم أبطل ذلك دين العقل والبصيرة كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية ، إلى أن فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم « أمرنى ربى » الله عز وجل ، وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم ، إلى أن فيه طلبا لعلم الغيب الذى استأثر الله به .

وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركى الجاهلية أو بما يشبهها فتراهم يستقسمون بالسُّبَح وغيرها ويسمون ذلك استخارة أو فألا فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحركونها حبة بعد أخرى ، يقولون : « افعل » على واحدة « لا تفعل » على الثانية ، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة ، وما هذا بالاستخارة التى ورد الإذن بها بل قد ورد ما يؤيد تحريمها .

ومنهم من يستقسم أو يأخذ الفأل من القرآن الكريم فيصبغون عملهم بصبغة الدين ، ويلبسون الباطل ثوب الحق ، ولم يرد فى هذا نص يجوّز العمل به ولكن الإلف والعادة جعلا هذه البدع مستحسنة وتأولوا لها اسم الفأل الحسن ورووا فى ذلك حديث أبى هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يعجبه الفأل الحسن » وليس هذا من الفأل الحسن ، بل الفأل ضد الطيرة التى أبطلتها الأحاديث.

والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن وحرموه على أنفسهم واكتفوا من الإيمان به والتعظيم له بالاستقسام به كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام ، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته فى كاغد أو جام (فنجان) وكل هذا من الضلالات والخرافات التى لم يرد شىء منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح .

وأعجب من ذلك جعل بعض الدجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة ، وكل ذلك ضلال إذ لا بينة فيه ولا سلطان .

والاستخارة التى وردت بها السنة هى التوجه إلى الله والالتجاء إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن الإنسان الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما تتعارض فيه الدلائل والبينات فلا يستبين له إن كان الخير فى الإقدام أو فى الترك ، فإذا شرح الله صدره لشىء أمضاه .

وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن يقول : « إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاجل أمرى وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به » قال ويسمى حاجته .

والقرعة تشبه هذا بل أمرها أظهر ، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعا كالقسمة بين اثنين إذ لا وجه لإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصة وعمرو الأخرى ، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة .

(ذلكم فسق) أى كل محرم مما سلف فسق وخروج من طاعة الله ورغبة عن شرعه إلى معصيته .

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) اليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة وكان يوم جمعة ، وهو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التى أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها

وأوهامها ، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله ، ولا حاجة معه إلى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم .

روى البيهقى فى كتاب شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) يقول يئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم وهو عبادة الأوثان أبدا (فلا تخشوهم) فى اتباع محمد (واخشونى) فى عبادة الأوثان وتكذيب محمد.

والخلاصة — إن الله أخبر المؤمنين بأن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم ، وأنه ينبغى لهم — وقد بدلهم بضعفهم قوة وبخوفهم أمنا وبفقرهم غنى — ألا يخشوا غيره وقد عرفوا فضله وإعزازه لهم .

وإجمال المعنى — انقطع رجاؤهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه لما شاهدوا من فضل الله عليكم إذ وفى بوعده وأظهره على الدين كله .

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) فى الآية بشارات ثلاث فسرها السلف بما سنذكره بعد :

روى عن ابن عباس أنه قال لما كان النبى صلى الله عليه وسلم واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله (اليوم أكملت لكم دينكم) أى حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعده حلال ولا حرام (وأتممت عليكم نعمتى) أى منّتى فلم يحج معكم مشرك (ورضيت) أى اخترت (لكم الإسلام دينا) .

وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضه الله إليه ، وروى ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا أنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضيه فلا يسخط أبدا .

وقال صاحب الكشاف : (اليوم أكملت لكم دينكم) كفيتكم أمر عدوكم وجعلت اليد العليا لكم كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك ، وكمل لنا ما نريد . إذا كُفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومنافعهم .

(وأتممت عليكم نعمتى) بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية و إبطال مناسكها وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان .

(ورضيت لكم الإسلام دينا) يعنى اخترته لكم من بين الأديان وآذنتكم بأنه هو الدين المرضى وحده « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » . اه

(فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم) الاضطرار : حمل الإنسان على ما يضره و إلجاؤه إليه ، والمخمصة : المجاعة تخمص لها البطون أى تضمر ، والمتجانف للإثم : المائل المنحرف إليه المختار له ، أى فمن وقع فى ضرورة تناول شىء من المحرمات بسبب مجاعة تخمص لها البطون و يخاف منها الموت أو مبادئه حال كونه غير مختار للإثم بأن يأكل منه ما يزيد على ما يمسك به رمقه ، فإن ذلك حرام كما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة رضى الله عنهم :

وفى معنى الآية ماجاء فى سورة البقرة « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى فمن اضطر غير طالب له ولا متعدّ ومتجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه . و إنما اشترط هذا لأن الإباحة للضرورة وهى تقدر بقدرها وذلك نافع للمضطر أدبا وطبعا لأنه يمنعه أن يتجرأ على ما تعود فيه مهانة له وضرر .

(فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى أكل شىء مما ذكر فأكل فى مجاعة لا يجد فيها غيره وهو غير مائل إليه لذاته ولا جائر فيه متجاوز قدر الضرورة ، فإن الله غفور لمثله لا يؤاخذه عليه ، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه .

ولما كان الأصل فى الأشياء الحل لأن الله سخر لنا مافى الأرض جميعا لننتفع به ، والمحظور علينا هو ما يضرنا ، ولكن الناس يتصدّون أحياناً لفعل ما يضرهم وترك ماينفعهم ، كما كانت تفعل العرب إذ استباحت أكل الميتة والدم ونحوها من الخبائث ، وحرمت على نفسها بعض الطيبات من الأنعام بخرافات وأوهام باطلة كالبحيرة والسائبة ونحوها ـ كانت الحاجة ماسة إلى بيان ما يحله الله تعالى مما حرموه بعد بيان ما حرمه مما أحلوه فقال :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥).

شرح المفردات

الطيب : ضد الخبيث ، والجوارح : واحدها جارحة، وهى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور من الجُرح بمعنى الكسب قال تعالى : « وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » أى كسبتم ، ومكلبين من التكليب وهو تعليم الكلاب و إضراؤها بالصيد ثم استعمل فى تعليم الجوارح مطلقا ، والمحصنات هنا: الحرائر، وقيل العفيفات عن الزنا ، والأجور المهور، والمراد بالمحصنين الأعِفَّاء عن الزنا ، مسافحين مجاهرين بالزنا، متخذى أخدان : مسرين به ، والخدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ، حبط عمله: بطل ثواب عمله.

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أمر أبا رافع بقتل الكلاب فى المدينة جاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا

من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ؟ فأنزل الله الآية فقرأها ، وذكر مسألة صيد الكلاب وأكل ما أمسكن منه كأنه تفسير لها » .

الايضاح

(يسألونك ماذا أحل لهم) أى يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام ؟

(قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله) الطيبات ما تستطيبها النفوس السليمة الفطرة ، المعتدلة المعيشة بمقتضى طبعها فتأكلها باشتهاء ، وما أكله الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى به غذاء صالحا ، وما يستخبثه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ويضره غالبا ، فما حرمه الله فى الآية السابقة خبيث بشهادة الله الموافقة للفطرة المعتدلة ، وأصحاب الفطر السليمة يعافون أكل الميتة حتف أنفها وما ماثلها من فرائس السباع والمترديات والنطائح والدم المسفوح ، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهماكه فى أكل القاذورات .

والخلاصة — أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون ما يخبث أو يعاف ، وأحل لكم صيد الجوارح بشرط أن يكون الجارح الذى صاده مما أدبه الناس وعلموه الصيد حتى يصح أن ينسب الصيد إليهم ويكون قتل الجارح له كتذكية مرسله إياه .

أما الطيبات فهى ما عدا المنصوص على تحريمه كبهيمة الأنعام وصيد البر والبحر أى ما من شأنه أن يصاد منهما ، فالبحر كل حيوانه يصاد ، والبر يصاد منه ما يؤكل ماعدا سباع الوحش والطير ، لحديث ابن عباس « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير) وحديث ثعلبة الخشنى « كل ذى ناب من السباع فأكله حرام » رواهما أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

(فكلوا مما أمسكن عليكم) أى فكلوا من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم ،

أى تصيده لأجلكم فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه ؛ فإن أكلت منه فلا يحل أكل مافضل عنها عند الجمهور ، لأنه مثل فريسة السبع المحرمة فى الآية السالفة .

(واذكروا اسم الله عليه) أى سموا عليه عند إرساله كما روى ذلك عن ابن عباس ، لحديث عدىّ بن حاتم « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فكل » والتسمية واجبة عند أبى حنيفة ، ومستحبة عند الشافعى .

(واتقوا الله إن الله سريع الحساب) أى اتقوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، ولا تقدموا على مخالفته فتأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على نفسها ، أو تطعموا مالم يسم الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه واعلموا أن الله لا يضيع شيئا من أعمالكم ، بل تحاسبون عليها وتجازون فى الدنيا والآخرة وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة فى وقت واحد ، فما أجدر حسابه أن يكون سريعا .

و بعد أن بين وجوب التذكية للذبائح لإبعادالمسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة ، وشدد فى التسمية على الطعام من صيد وذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليطهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك .

بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناكحتهم ، لأنهم لما كانوا فى الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم نزغات الشرك ممن دخل فى دينهم من المشركين كان هذا مظنة التشديد فى مؤاكلتهم ومناكحتهم ، كما شدد فى أكل ذبائح مشركى العرب ونكاح نسائهم ، فذكر أنا لانعاملهم معاملة المشركين فى ذلك بل تحل لنا مؤاكلتهم ونكاح نسائهم فقال :

(اليوم أحل لكم الطيبات) أى اليوم أحلت لكم الطيبات على سبيل التفصيل بعد أن كانت حلالا بالإجمال وصار حكمها مستقرا ثابتا .

(وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) الطعام هنا الذبائح لأن غيرها حلال بأصله ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى أى وذبائح أهل الكتاب ممن أوتوا التوراة والإنجيل ودانوا بهما أو بأحدهما حلال لكم دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان .

وروى ابن جرير عن أبى الدرداء وابن زيد أنهما سئلا عما ذبحوه للكنائس فأفتيا بأكله ، قال ابن زيد أحل الله طعامهم ولم يستثن منه شيئا ، وقال أبو الدرداء — وقد سئل عن كبش ذبح لكنيسة يقال لها جِرْجِيس أهدوه لها أنأكل منه ؟ اللهم عفوا إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم ، وأمره بأكله .

(وطعامكم حل لهم) أى وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب ، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه .

وفائدة ذكر ذلك بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، وليس كذلك إباحة المناكحة ، فذكره للتمييز بين النوعين .

(والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) .

المحصنات هنا الحرائر أى وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من المؤمنات ونكاح الحرائر من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى إذا أعطيتم من نكحتم من محصناتكم ومحصناتهم مهورهن .

وتقييد الحل بإتيان المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه فى الحل ، وتخصيص الحرائر بالذكر للحث على ماهو الأولى منهن لا لأن من عداهن لا يحل ، إذ نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح الإماء الكتابيات عند أبى حنيفة .

(محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) المحصنون : الأعفاء عن الزنا ، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة مجاهرين بها ، والمتخذ والأخدان : الذين يأتونها سرا

بالاختصاص بخدن من الأخدان ؛ والخدن يطلق على الصاحب والصاحبة أى هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلا والتزمتم به حال كونكم أعِفَّاء عن الزنا جهرا وسرا، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصنا والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر ويجعله فى حصن يمنعه من الفاحشة على أى وجه كانت ، فلا يزنى الرجل جهرة ولا سرا باتخاذ صاحبة خاصة به ولا تكون المرأة كذلك .

(ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين) أى ومن ينكر شرائع الإسلام التى من جملتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها فقد حبط عمله الصالح الذى عمله قبل ذلك وبطل ثوابه وخسر فى الآخرة ما أعده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح وهو إيمان الإذعان والعمل .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن ناسا من المسلمين قالوا كيف نتزوج نساءهم يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا ؟ فأنزل الله عز ذكره ومن يكفر بالإيمان الخ . فأحل الله تزويجهن على علم اهـ .

والمغزى من الآية تعظيم شأن ما أحله الله وما حرمه والتغليظ على من خالف ذلك.

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) .

المعنى الجملى

اعلم أن بين العبد وربه عهدين عهد الربوبية والإحسان ، وعهد العبودية والطاعة ، وبعد أن وفى له سبحانه بالعهد الأول وبين له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة فى الطعام والنكاح وطلب إليهم الوفاء بالعهد الثانى وهو عهد الطاعة ، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لاجرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء .

وبعد أن بين لنا طائفة من الأحكام المتعلقة بالعادات والعبادات ذكرنا بعهده وميثاقه علينا وما التزمناه من السمع والطاعة له ولرسوله بقبول دينه الحق لنقوم به مخلصين .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام للصلاة إلا إذا كان محدثا .

أى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا الخ . وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية فى الصدر الأول، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بُرَيْدَة قال: « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد . فقال له عمر يا رسول الله إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله فقال: (عمدا فعلته ياعمر) » وروى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ

عند كل صلاة ، قال قلت : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد مالم نحدث، وروى أحمد والشيخان من حديث أبى هريرة مرفوعا «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا فى عهد النبي يتوضئون لكل صلاة وإنما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة غالبا ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك .

ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة وهو الأفضل ، وإنما يجب على من أحدث . وآخر الآية يدل على ذلك فإنه ذكر الحدثين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدهما فعلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى .

والخلاصة — أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

(فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق) الغسل (بالفتح) إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه ، والوجوه واحدها وجه، وحدّه من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللحيين طولا ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضا ، والأيدى واحدها يد وحدّها فى الوضوء من رءوس الأصابع إلى المرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد .

روى مسلم من حديث أبى هريرة : أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع فى العضد ، ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع فى الساق ، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع فى الساق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ .

(وامسحوا برءوسكم) الرأس معروف ويمسح ما عدا الوجه منه . وقد اختلف فقهاء الأمصار فى أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس ، فقال الشافعى يكفى أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة ، وقال مالك يجب مسح الكل أخذا بالاحتياط،

وأوجب أبو حنيفة مسح الربع لأن المسح إنما يكون باليد وهى تستوعب مقدار الربع فى الغالب . ولما روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته» (وهى مقدار الربع) .

(وأرجلكم إلى الكعبين) الكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين ، أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ويؤيده عمل النبى صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة فقد روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لم يغسل عقبه فقال : « ويل للأعقاب من النار » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا قال فنادى بأعلى صوته « ويل للأعقاب من النار » مرتين أو ثلاثا .

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الأرجل ، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة ، قال الحسن : حدثنى سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يمسح على الخفين » وقال الحافظ بن حجر : قد صرح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير ، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له تفعل هكذا ؟ قال نعم . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه .

والخلاصة — أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة .

(وإن كنتم جنبا فاطهروا) الجنب لفظ يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث والمراد به المضاجعة والوقاع أى وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم فى صلاتكم التى قمتم إليها .

وفى معنى الوقاع خروج المنى بالاحتلام فهو جنابة شرعا ، وفى الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم ، أى إنما يجب ماء الغسل من الماء الدافق الذى يخرج من الإنسان مهما كان سبب خروجه .

ولما بين سبحانه وجوب الطهارتين وكان المسلم لابد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ولابد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر مرة غالبا بين الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يسر لاحرج فيه ولا عنت فقال :

(وإن كنتم مرضى) أى وإن كنتم مرضى مرضا جلديا كالجُدَرِيِّ والجرب وغيرهما من القروح والجروح أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

(أو على سفر) طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

(أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط المكان المنخفض من الأرض ، ويراد به شرعا قضاء الحاجة من بول وغائط أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها كالطواف ، ويسمى الحدث الأصغر .

(أو لامستم النساء) المراد بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء ، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر .

(فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين فاقصدوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهرا لا نجاسة عليه فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين بحيث يصيبها أثر منه .

(ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية وفى غيرها حرجا ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة لأنه تعالى غنى

عنكم رحيم بكم فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم .

(ولكن يريد ليطهركم) من الأقذار والرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ؛ فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوسا وأصحهم أجسادا وأرقاهم أرواحا .

(وليتم نعمته عليكم) فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان إنما هو روح وجسد والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس ، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر وتعوّد المصلى مراقبة ربه فى السر والعلن وخشيته حين الإساءة والرجاء فيه لدى الإحسان ، والطهارة التى جعلها الله شرطا للدخول فى الصلاة ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجلّ نعم الله على عباده ، وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله :

(لعلكم تشكرون) أى وليعدكم بذلك لدوام شكره على تلك النعم الظاهرة والباطنة.

الحكمة فى شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

(١) أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطا وهمة ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التى تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى . إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال حصل تهييج عصبى كبير يعقبه فتور شديد على حسب سنة رد الفعل ، ولايعيد نشاطه إلا غسل البدن كله .

(٢) أن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون فى أيام الأوبئة والأمراض المعدية فى المبالغة فى النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجسادا وأقلهم أمراضا

لأن دينهم مبنى على المبالغة فى نظافة الأبدان والثياب والأمكنة فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التى تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

(٣) تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ولقاء أشراف الناس وفضلائهم ومن كان وسخا قذرا فإنه يكون محتقرا عند كرام الناس ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر فى نفسه بالضعة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل يوم الجمعة والطيب ولبس الثياب النظيفة لأنه يوم يجتمع فيه الناس فى المساجد لعبادة الله تعالى ، روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الحرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمه التى أنعم بها علينا فقال :

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) أى تذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفارا متباغضين فأصبحتم بهداية الدين إخوانا متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكره (المحبوب ـ والمكروه) والعسر واليسر حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ما جئتنا به فهو معروف .

وكل نبى بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة ، والدخول فى الدين يعد قبولا لهذا العهد ، فعلينا أن نعدّ هـــذا التذكير خطابا لنا كما عده السلف من الصحابة خطابا لهم .

(واتقوا الله) فلا تنقضوا عهده وتخالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

(إن الله عليم بذات الصدور) فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق من نية الوفاء به أو عدم الوفاء ، وما تنطوى عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) .

شرح المفردات

القوّام بالشىء : هو القائم به حق القيام ، شهداء بالقسط أى شهداء بالعدل بلا محاباة ، ولا يجرمنكم أى ولا يحملنكم ، والشنآن : العداوة والبغضاء ، الخبير :العالم بالشىء على وجه الدقة والضبط، والجحيم : النار العظيمة ، وهى هنا دار العذاب وأصحابها هم ملازموها ، بسط إليه يده : إذا بطش به ، و بسط إليه لسانه : إذا شتمه ، والتقوى هى اتقاء عقاب الله وسخطه بترك معاصيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام

أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم - ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواهم سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ما تعملونه من أمر دينكم أو أمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

(شهداء بالقسط) الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أى إظهاره هو له بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة

فالعدل هو ميزان الحقوق ، إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت المفاسد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغابرها ، ولكن الناس لا يعتبرون .

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب حق أو الحكم لهم بذلك ، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما .

(اعدلوا هو أقرب للتقوى) هذه الجملة توكيد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هوادة فيها لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

(واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) أى واتقوا سخطه وعقابه لأنه لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ظاهرها و باطنها ، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد وفى الآخرة الخزى يوم الحساب .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه ما وعدهم به بعد أن ذكره أولا مجملا لتتوجه النفس للسؤال عنه حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد فقال :

(لهم مغفرة وأجر عظيم) المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران و يمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة فيغلب عليها حب الحق والخير وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح فضلا من الله ورحمة من لدنه .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) الكفر هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض .

وآيات الله قسمان آياته المنزلة على رسله وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته و إرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا

فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلَوْن العذاب فى نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته لأن نفوسهم قد فسدت ، وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم فأصبحوا صما عميا لا يبصرون .

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت فى رجل من قبيلة محارب همّ بقتل النبى صلى الله عليه وسلم أرسله قومه لذلك وكان بيده سيف وليس مع النبى صلى الله عليه وسلم سلاح وكان منفردا . روى الحاكم من حديث جابر قال : قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال الله ، فوقع السيف من يده فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال كن خير آخذ ، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفى رواية أخرى « أن السيف الذى كان بيد الأعرابى كان سيف النبى صلى الله عليه وسلم علقه فى شجرة وقت الراحة فأخذه الرجل وجعل يهزه ويهم بقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم سقط من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ، ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد تذكيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التى تصيب المسلمين .

وقيل إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام وعظمة شوكة المسلمين فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم بدل الله الحال غير الحال وأصبحوا أعزة بعد الذلة وغالبين بعد أن كانوا مقهورين فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها

سواء فى ذلك حادثة المحاربى أو مثالها لأن حفظه لأولئك السلف هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبى صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولا وعملا .

ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه فى التأسى بالسلف فى القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر .

ومعنى قوله : إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ماهموا به .

(واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه والسير عليها فى اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب ويجبنون داعى البأس إذا اشتد البأس ، والحلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه وهو الذى بيده ملكوت كل شىء وهو الذى يجير ولا يجار عليه فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقلتهم وفقرهم وتألب الناس كلهم عليهم .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ

فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) .

شرح المفردات

نقيب القوم : من ينقب عن أحوالهم ويبحث عن شئونهم ، ونقب عليهم نقابة صار نقيبا عليهم ، والتعزير : النصرة مع التعظيم ، وأقرضتم الله أى بذلتم المال فوق ما أوجبه عليكم ، والقرض الحسن : ما كان عن طيب نفس ، سواء السبيل : وسطه ، لعناهم : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، وقاسية : يابسة غليظة تنبو من قبول الحق ، والتحريف : إمالة الشيء عن موضعه إلى أى جانب من الجوانب ، والخائنة : الخيانة ، الإغراء : أصله التحريش ، يقال أغرى الشيء بالشيء والمراد هنا تفرق الأهواء الموجب للعداوة والبغضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا الله بميثاقه الذى واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ـ بين لنا فى هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى وما كان من نقضهم له ومن عقابه لهم على ذلك فى الدنيا بضروب الذلة والمسكنة وفى الآخرة الخزى والعذاب لنعتبر بحالهم ونبتعد أن نكون على مثالهم وليشرح لنا العلة فى كفرهم

بالنبى صلى الله عليه وسلم وسبب تصديهم لإيذائه وعداوة أمته وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر المحاجة وبيان أنواع كفرهم وضلالهم .

الإيضاح

(ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل) أى ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بنى إسرائيل ليعملُنَّ بما فى التوراة وفيها شريعتهم التى اختارها لهم ، ولا يزال هذا الميثاق فى آخر الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام .

(وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) نقباء بنى إسرائيل زعماء أسباطهم الاثنى عشر وبعثنا أى أرسلنا لمقاتلة الجبارين الذين سيأتى ذكرهم بعد .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم إنى جعلتها لكم وطنا ودار هجرة فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها و إنى ناصركم ، وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل وتكفل له به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد كان موسى نهاهم عن ذلك فنكثوا الميثاق إلا نقيبين وهما اللذان قال فيهما (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ) الآية ، وسيأتى الكلام فى ذلك بعد .

(وقال الله إنى معكم) أى وقال الله هذا لموسى وهو بلغه عنه، ومعنى كونه معهم أنه ناصرهم ومعينهم ما داموا محافظين على الميثاق ، وهو راء لأفعالهم ، سميع لأقوالهم عليم بضمائرهم ، وقادر على مجازاتهم .

(لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى لئن

obeikandi.com

أديتم الصلاة على وجهها ، وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التى تتزكى بها نفوسكم ، وآمنتم برسلى الذين أرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيي وعيسى ومحمد ونصرتموهم معظمين لهم ، وبذلتم من المال زيادة على ما أوجبه الله عليكم بالزكاة فكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغنى ملىء وفىّ لا يضيع عليه ، بل يجده أمامه عند شدة الحاجة إليه - لئن فعلتم كل هذا لأزيلن بتلك الحسنات تأثير سيئاتكم التى سلفت منكم من نفوسكم فلا يبقى فيها رجس ولا خبث يقتضى العقاب ، فإن الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ ، ولأدخلنكم تلك الجنات التى لا يدخلها إلا من كان طاهراً من الشرك وما يتبعه من المعاصى والآثام التى تفسد الفطرة .

(فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أى فمن جحد منكم شيئا مما أمرته به فتركه أو عمل شيئا مما نهيته عنه بعد أخذ الميثاق عليه بالوفاء لى بطاعتى واجتنابه معصيتى فقد أخطأ الطريق الواضح وضل الصراط المستقيم الذى يوصل سالكه إلى إصلاح قلبه وتزكية نفسه ويجعله أهلا لجوار ربه فى تلك الجنات .

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) أى فبسبب نقضهم للميثاق الذى أخذ عليهم - ومن ذلك الإيمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم وتعظيمهم - استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد من ألطافنا فإن نقض الميثاق أفسد فطرتهم ودنس نفوسهم وقسى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على مريم وأهانوا ولدها الذى أرسل إليهم وإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا قتله وافتخروا بذلك - فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله إذ جرت سنته أن الأعمال السيئة تؤثر فى النفوس آثارا سيئة فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة ، ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته ، وما مثل هذا إلا مثل من يهمل العناية بنفسه ولا يراعى القوانين الصحية فهو لا شك سيصاب بالأمراض والأسقام ولا يلومن فى هذه الحال إلا نفسه إذ كان هو السبب فى ذلك بإهماله .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) تحريف الكلم عن مواضعه يكون : إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، وإما بتحريف المعانى بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع فى التوراة وغيرها من كتبهم ، فإن التوراة التى كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما نص على ذلك فى الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ، قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ولم يكونوا يستظهرونها كما كان المسلمون يستظهرون القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

وهناك أسفار خمسة ينسبونها إلى موسى - فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعا ، وفيها خبر موته وأنه لم يقم بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع ، وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى بردح من الزمن طويل كما أن فيها كثيرا من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبى .

لكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

(ونسوا حظا مما ذكروا به) روى عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب ؛ وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ أنزل عليهم ، ومرادهما أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب ، وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به .

وفى الحق أنهم أضاعوا كتابهم وفقدوه عند ما أحرق البابليون هيكلهم وخربوا عاصمتهم وسبوا من بقى منهم حيا ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه وعملوا به .

وهذا الخبر من أعظم الأدلة على أن القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أثبتها التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى .

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم) الخائنة بمعنى الخيانة كالقائلة بمعنى القيلولة والخاطئة بمعنى الخطيئة .

أى إنك أيها النبى لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة فلا تظنن أنك أمنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان ، فمن نقض عهد الله وميثاقه ، كيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه فى أمانة ؟

(إلا قليلا منهم) كعبد الله بن سلام و إخوانه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله فلا تظنن بهم سوءا ولا تخف منهم خيانة ولا خداعا .

(فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) أى فاعف عما فرط من هؤلاء القليل واصفح عمن أساء منهم وعاملهم بالإحسان الذى يحبه الله تعالى فأنت أحق الناس باتباع مايحبه الله و يرضاه ، وهذا رأى أبى مسلم ، وقال غيره : فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك و إلى أصحابك بالقتل واصفح لهم عن جرمهم فإنى أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه إيثارا للاحسان والفضل على ما يقتضيه العدل .

وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم رغب عند ما دخل المدينة فى مصالحة اليهود وموادعتهم فعقد معهم العهد على ألا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه ولا يمالئوا عليه عدوا له ، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريتهم ، وكان إذ ذاك منهم ثلاث طوائف حول المدينة وهم بنو قينقاع و بنو النضير و بنو قريظة فنقضوا العهد وهموا بقتل النبى صلى الله عليه وسلم فحل له قتالهم ولكنه رجح السلم على الحرب واكتفى بطردهم من جواره و بعث إليهم «أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى وقد أجلتكم عشرا فمن وجدته بها بعد ذلك ضربت عنقه » فأقاموا يتجهزون أياما ثم ثبط عزيمتهم عبد الله بن أبىّ وأرسل إليهم ألا تخافوا إن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان وكان رئيسهم

المطاع حيي بن أخطب شديد العداوة للنبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى زين لهم قتله والغدر به فركن إلى قول ابن أبىّ و بعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك .

فعلم النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون الحرب فخرج هو والمسلمون للقائهم يحمل لواءه على بن أبى طالب كرم الله وجهه فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم يرمونهم بالنبل والحجارة ، ولما اشتد عليهم الحصار ورأوا ألا سبيل لهم إلا المقاومة رضوا بالخروج سالمين وعلموا أن وعد ابن أبىّ كان هو الغدر والخيانة بعينها وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قادرا حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم ولكنه اختار العفو والإحسان واكتفى بإبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها وليس معهم إلا أولادهم وما حملت إلا السلاح ، ورحلوا إلى خيبر .

وهذه الآية نزلت بعد هذا كله لأنها من آخر ما نزل ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانة ولا غدر ولكنه أوصى بإجلائهم عن جزيرة العرب .

(ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به) أى وكذلك أخذنا من النصارى الثبات على طاعتى وأداء فرائضى واتباع رسلى والتصديق بهم ، فسلكوا فى ميثاقى الذى أخذته عليهم طريق اليهود الضالين ، فبدلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذى أخذته عليهم بالوفاء بعهدى وضيعوا أمرى .

(فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فكان نسيان خطر عظيم من كتابهم سببا لتفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى فى هذه الحياة ومن أجل هذا نسبه سبحانه إلى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة حتمية لتلك السنن التى وضعت فى الخليقة .

(وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) أى وسينبئهم الله عند الحساب فى الآخرة بما كانوا صنعوا فى الدنيا من نقض الميثاق ونكث للعهد وتبديل للكتاب

وتحريف للأوامر والنواهى ويجازيهم على ذلك على حسن استحقاقهم فيعلمون أنه حكم عدل لايظلم مثقال ذرة .

بين الله فى هذه الآية أن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، وسر هذا أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما ذكرهم به من المواعظ وتوحيد الله وتنزيهه وطرق الإرشاد إلى عبادته وكان الذين اتبعوه من العامة وأمثلهم حواريه وهم من الصيادين ، وقد اشتد اليهود فى مطاردتهم فى كل مكان ، ومن ثم لم تكن لهم جماعات ذات نفوذ وقوة وعلم تدون ما حفظوه من الإنجيل .

إلى أن كثيرا من الناس كانوا يبثون تعاليم باطلة عن المسيح ومنهم من كتب مثل هذا حتى إن الكتب التى سموها الأناجيل كانت كثيرة جدا ، ولم تظهر الأناجيل الأربعة التى عليها المعول عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عند ما صار للنصارى دولة بدخول الملك قسطنطين فى النصرانية وإدخاله إياها فى طور جديد من الوثنية وهى تاريخ ناقص للمسيح على ما بها من تعارض وتناقض مع كونها مجهولة الأصل والتاريخ وقد أقاموا بناء دينهم وكتبهم التى يسمونها (العهد الجديد) على أساس كتب اليهود التى يسمونها كتب (العهد العتيق) وقد علمت شأنها فيما سلف .

يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى كما أخذه على هذه الأمة وأنهم نقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به ، وأنهم أضاعوا حظا عظيما مما أوحاه إليهم ولم يقيموا ما حفظوا منه ـ دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى جاء به .

الإيضاح

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) قال ابن عباس أخفوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأخفوا أمر الرجم ، وعفا عن كثير مما أخفوه فلم يفضحهم ببيانه .

أى إنا قد أرسلنا إليكم محمدا رسول الله وخاتم النبيين يبين لكم كثيرا من الأحكام التى كنتم تخفونها وقد أنزلها الله عليكم كحكم رجم الزانى وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة كما هو ثابت فى سفر التثنية ، لكنكم لم تلتزموا العمل به وأنكره عالمكم ابن صوريا أمام النبى صلى الله عليه وسلم فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به ، وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبى صلى الله عليه وسلم والبشارات به وحرفوها بالحمل على معان أخرى إلى ما أضاعوه من كتبهم ونسوه كنسيان اليهود ما جاء فى التوراة من أخبار الحساب والجزاء فى الآخرة وأظهره الرسول لهم وكانت الحجة عليهم فيه أقوى إذ هم يعلمون أنه نبى أمى لم يطلع على شىء من كتبهم ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين واعترفوا بعد إيمانهم بما بقى عندهم من البشارات وصفات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزات القرآن التى لا ينبغى أن يمترى أحد فيها ومع هذا فقد كان يعفو عن كثير مما كانوا يخفونه ولا يظهر الكثير مما يكتمونه ، وإنما لم يظهره لأنه

لا حاجة إلى إظهاره فى الدين ، والفائدة فى ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول عالم بكل ما يخفونه فيكون ذلك داعيا لترك الإخفاء حتى لا يفتضحوا .

ومن شأن علماء السوء فى كل أمة أن يكتموا من العلم ما يكون حجة عليهم وكاشفا عن سوء حالهم أو يحرفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) النور هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وسمى بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئا من المبصرات كذلك لولا ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء بالبعض الآخر بإخفاء شىء منه أو تحريفه ولظلوا فى ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون .

والكتاب المبين هو القرآن الكريم وهو بين فى نفسه مبين لما يحتاج إليه الناس لهدايتهم .

(يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) من اتبع رضوان الله أى من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله لا تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال ، والسلام بمعنى السلامة أى طرق السلامة من كل مخافة ، وقوله من الظلمات إلى النور أى من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله بإذنه أى بإرادته أو بتوفيقه بالجرى على سننه تعالى فى تأثير الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة فى النفوس وإصلاحها إياها ، وقوله إلى صراط مستقيم أى إلى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته ؛ أما الباطل فتتعدد الطرق وكلها معوجة ملتوية ، وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

(١) أن المتبع لما يرضى الله بالإيمان بهذا الكتاب يهديه إلى الطرق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك فيقوم فى الدنيا بحقوق الله

والحقوق الواجبة عليه لنفسه (روحية كانت أو جسدية) وللناس ويكون فى الآخرة منعما نعيما روحيا وجسديا .

وخلاصة ذلك :

(١) إنه يتبع دينا يجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء فى الدنيا والآخرة لأنه دين الإخلاص والعدل والمساواة .

(٢) إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التى أفسد بها الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذى يجعل صاحبه حرا كريما بين يدى الخلق خاضعا للخالق وحده .

(٣) إنه يهدى إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين بأقرب الوسائل .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة بين ما كفر به النصارى خاصة.

الإيضاح

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) المسيحيون فى هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد فى أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا ؛ وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التى كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهولاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذى هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء ، فلا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحى كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح بن مريم وإن المسيح بن مريم هو الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الأب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافى توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن فى نصارى أوربة وغيرهم من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبى ورسول لا إله .

قال الدكتور بوست البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس (طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر : الله الآب ، الله الابن ، والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفدى وإلى الروح القدس التطهير) غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء ، والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى (فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة) وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفقرة الثالثة من إنجيل يوحنا (والله هو المسيح بن مريم) وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم -

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب .

(قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) أى قل أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه بل عن سائر الخلق جميعا إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم .

وخلاصة هذا — إن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا لا يستطيع أحد أن يردّ إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شىء .

(ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة وهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما أى ما بين العالمين بالنسبة إليكم .

(يخلق ما يشاء) أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ـ هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ولا على ألوهية بعضها ولا حلول الإله الخالق فيها ، وكذلك سنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلها وربا لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقا .

obeikandi.com

(والله على كل شيء قدير) أى إنه تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له كما فى عيسى عليه السلام إذ كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعدّ بعضه غريبا بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبيٍّ يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

روى ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبيّ وبحرى بن عمرو وشأس بن عدى فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) إلى آخر الآية ، وقد جاء إطلاق هذا اللفظ فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه متّى فى وعظ المسيح على الجبل من قوله : (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون) وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية (لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله) ومن هذا يعلم أن (ابن الله) يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله الذى يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه :

(قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر وليلدكم المرة بعد المرة ومن إزالة ملككم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه فلستم إذا

أبناء الله ولا أحباؤه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحابى أحدا ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم فتيلا ولا قطميرا وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب .

(ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لا أبناء ولا بنات «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا»

وفى ختمها بقوله «وإليه المصير» إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة وأنهم عند مايصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آبقون يجازون، لا أبناء ولا أحباء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر ، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم وإن كان أصح منهم إيمانا وأصلح أعمالا، ولا ينبغى أن يتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه عربى لا إسرائيلى والفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء ، والنصارى قد زادوا عليهم غرورا فهم قد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح ، والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .

وقد جاهد النبى صلى الله عليه وسلم غرور اليهود جهادا عظيما ولم يُجْدِ ذلك فيهم شيئا فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة الله وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم ، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فسادا وظلما وعدوانا بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك :

والخلاصة - إن هذه الآيات تبين لنا سنة الله فى البشر وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم وأخبركم به أنبياؤكم ، فقد جاء على لسان موسى (أنه سيقيم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم) وعلى لسان عيسى (أنه سيجىء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شىء) وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين (أحبارا) فسألوا يوحنا عليه السلام : أأنت المسيح ؟ قال لا . أأنت إيليا ؟ قال لا . أأنت النبى؟ قال لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأمى يبين لكم على فترة من الرسل أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى ، جميع ما أنتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزغات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم فى الأمور المادية والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئا مما جاء به .

وقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وقد فشا التغيير والتحريف فى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار ذلك عذرا ظاهرا فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا يا إلهنا عرفنا أنه لابد من عبادتك ولكن كيف نعبدك فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين لإزالة هذا العذر ، وهذا معنى قوله :

(أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أى إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين

(فقد جاءكم بشير ونذير) يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحابى أحدا .

(والله على كل شىء قدير) ومن دلائل قدرته نصر نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته فى الدنيا ، وفى ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى الأحلام إلى ما يكون له من المنزلة فى الدار الآخرة .

روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله لتعلمُنّ أنه رسول الله ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا: إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل من كتاب من بعد موسى ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله الآية .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلاَ إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَأَخِى
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على بنى إسرائيل وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبيائهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال غرورهم وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفرا وعنادا ـ قص علينا فى هذه الآيات خبرا من أخبارهم مع موسى عليه السلام وهو المنقذ لهم من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم إلى الحرية والاستقلال لكنهم مع هذا كله كانوا يخالفونه ويعصون أوامره ـ ليعلم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن مكابرتهم للحق خلق من أخلاقهم توارثوها من أسلافهم وتأصلت فى طباعهم فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك وصدوا عن هديك ـ وفى هذا من تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم وسنن الاجتماع البشرى .

الايضاح

(وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) أى واذكر أيها الرسول الكريم لبنى إسرائيل وسائر من تبلغهم دعوتك حين قول موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله : ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له ، لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى :

« لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد كما قال تعالى « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

وقد بين لهم موسى أصناف هـــذه النعم التى منحها لهم مولاهم وحصرها فى ثلاثة أشياء :

(١) وهو أرفعها قدرا وأعلاها ذكرا أنه جعل كثيرا منهم أنبياء كموسى وهرون ومن كان قبلهما ، وقد حكى ابن جرير أن السبعين الذين اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل حين يصعده لمناجاة ربه صاروا كلهم أنبياء ، والمعروف أن النبوة عند أهل الكتاب المراد منها الإخبار ببعض الأمور الغيبية التى تقع فى المستقبل بوحى أو إلهام من الله عز وجل ، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما فى التوراة ويعملون بها حتى المسيح عليه السلام .

(٢) أنه جعلهم ملوكا ، والمراد من الملك هنا الحرية فى تدبير أمورهم وأمور أسرتهم بأنفسهم ، وفى هذا من تعظيم هـذه النعمة ما لايخفى ، يؤيد هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا « كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » ، وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » .

ولا شك أن من كان متمتعا بمثل هذا كان متمتعا بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية فى التصرف فى سياسة بيته ، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوما مع عشيرته هانئا فى معيشته مالكا لمسكنه (هذا ملك ـ أو ملك زمانه) يريدون أنه يعيش عيشة الملوك .

(٣) أنه آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين أى عالمى زمانه وشعوبه التى كانت مستعبدة للطغاة من الملوك ؛ فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسلوى وأظل فوقهم الغمام .

وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصروه فقال :

(ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم) المقدسة المطهرة من الوثنية لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد ، روى ابن عساكر عن معاذ ابن جبل أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات ، وبعضهم يسمى القسم الشمالى من هذا القطر باسم سورية والباقى باسم فلسطين أو بلاد المقدس أو الأرض المقدسة أو أرض الميعاد ، لأن الله وعد بها ذرية إبراهيم ويدخل فيما وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب .

فقول موسى : كتب الله لكم ، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى فى تلك البلاد المقدسة لا أن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يزاحمهم فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده ، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لابد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح .

ونص هذا الوعد فى سفر التكوين من التوراة إنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب وقال : (لنسلك أعطى هذه الأرض) وجاء فيه أيضا فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا : (لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) .

(ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) أى لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية والفساد فى الأرض بالظلم والبغى واتباع الأهواء فإن فى هذا الرجوع خسرانا لكم ، إذ تخسرون فيه هذه النعم ومنها الأرض المقدسة التى ستعطونها جزاء شكركم فتحرمون من خيراتها وبركاتها ، وقد جاء فى بعض أوصافها (إنها تفيض لبنا وعسلا) وتعاقبون بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم .

(قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) الجبار لغة الطويل القوى المستكبر العاتى المتمرد الذى يجبر غيره

على مايريد من قولهم نخلة جبارة أى طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى .

كان سكان تلك البلاد فى ذلك الحين هم بنى عناق وكانوا أولى قوة وبأس ، طوال القامة ضخام الأجسام ، وقد ورد فى وصفهم فى الاسرائيليات من الخرافات التى كان يبثها اليهود فى المسلمين ما لايصدقه العقل ولا ينطبق على ماعرف من سنن الله فى خلقه كقولهم : إن العيون الاثنى عشر (الجواسيس) الذين بعثهم موسى إلى ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها قومه رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم فى كسائه وفى رواية أخرى أن أحدهم كان يجنى الفاكهة فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه فى كمه مع الفاكهة — إلى نحو أولئك من روايات بعيدة عن الصدق فالمصريون هم هم ونسل الكنعانيين مشاهد معروف لا يمكن أن تكون أصوله على ما وصفوا .

وهذه القصة مبسوطة فى السفر الرابع من أسفار التوراة ففيها : إن الجواسيس تجسسوا أرض كنعان كما أمروا وأنهم قطعوا فى عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب واحد حملوه بعتلة بين اثنين منهم مع شىء من الرمان والتين وقالوا لموسى وهو فى ملأ بنى إسرائيل : قد صرنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها فإذا هى بالحقيقة تدرّ لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكنين فيها أقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا ورأينا ثم أيضا بنى عناق — إلى أن قال وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بنى عناق فصرنا فى عيوننا كالجراد ، وكذلك كنا فى عيونهم — وذكر فى فصل آخر تذمر بنى إسرائيل من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض ، وأنهم بكوا وتمنوا لو أنهم ماتوا فى أرض مصر أو فى البرية وقالوا : لماذا أتى الرب إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ، أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟ الخ

والخلاصة — إن موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاتلهم من أهلها ، وإنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل واضطهاد المصريين لهم وظلمهم إياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم

obeikandi.com

وقوة أهل تلك البلاد وحاولوا الرجوع إلى مصر وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، وقولهم (فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) تأكيد لما فهم مما قبله مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكروه .

وفى إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وخور العزيمة وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئا باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية ، ولا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير ، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا فى هذه الحياة .

ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العز والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق فى شئونها ، ومن ثَمَّ لم تقم لها دولة بعدُ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) قوله : يخافون أى يخافون الله تعالى ، وقوله : أنعم الله عليهما أى بالطاعة والتوفيق لما يرضيه حتى فى حال الخوف والذعر ، والتوراة وتبعها المفسرون قاطبة على أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفُنة ، وأنهما كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين ثقة بوعد الله بالنصر وتأييده إياهم .

(ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى ادخلوا عليهم باب المدينة ، فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده بعد أن تعملوا مافى طاقتكم من طاعة ربكم وتثقوا به فيما لا يصل إليه كسبكم إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق وأنه قادر على الوفاء به ، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا ثقة بنبوة موسى وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، لا جرم قطعا بالنصر والغلبة على العدو .

(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) أى إنهم أصروا على العناد والتمرد ولم تغن عنهم عظات الرجلين

شيئا ، فأكدوا لموسى أنهم لا يدخلون هذه الأرض مدى حياتهم ما دام فيها الجبارون ، لأنهم لا طاقة لهم بالحرب والقتال إذ ليسوا من أهله ، فإن صحت عزيمتك على ذلك فاذهب أنت وربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين وأخرجاهم من هذه الأرض وإنا هاهنا قاعدون منتظرون .

وهذا القول الذى صدر منهم يدل على منتهى الجفاء والبعد عن الأدب وليس هذا بالغريب من أمثال هؤلاء الذين عبدوا العجل وكان دأبهم الشغب مع أنبيائهم وقتلوا كثيرا منهم كإشعيا وزكريا وقص القرآن كثيرا من فساد طباعهم وقسوتهم وغلظتهم .

(قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى) أى قال موسى باثّا شكواه إلى ربه معتذرا من فسق قومه عن أمره الذى يبلغه عن ربه ـ إنى لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيرنا أن يطيعك فى اليسر والعسر والمَنْشَط والمَكْرَه (المحبوب والمكروه) .

وفى هذا إيماء إلى أنه لم يكن موقنا بثبات يوشع وكالب ورغبتهما فى الطاعة إذا أمر الله بدخول أرض الجبارين والتصدى لقتالهم ، فإن من يجرؤ على القتال مع الجيش الكبير فربما لا يجرؤ عليه مع العدد القليل ، وأما ثقته بأخيه فلما رأى من بلائه معه فى مقاومة فرعون وقومه ولسياسة أمور بنى إسرائيل عند مناجاة ربه ، ولما يعلم من تأييد الله له بمثل ما أيده به .

(فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) الفرق : الفصل بين الشيئين أو الأشياء أى فافصل بيننا (يريد نفسه وأخاه) وبين القوم الفاسقين عن طاعتك بقضاء تقضيه بيننا فتحكم لنا بما نستحق، وعليهم بما يستحقون فقد صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا، وقيل إن المعنى : إنك إذا أخذتهم بالعقاب على قسوتهم فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا .

(قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) التيه الحيرة ، يقال تاه يتيه : إذا تحير ومفازة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها ،

والتحريم : المنع أى قال الله لموسى مجيبا دعوته : إن الأرض المقدسة محرمة على بنى إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا مدة أربعين سنة يتيهون فيها فى الأرض أى يسيرون فيها فى برية تائهين متحيرين لا يدرون أين مصيرهم .

(فلا تأس على القوم الفاسقين) الأسى الحزن يقال أسيت عليه أسى وأسيت له أى فلا تحزن عليهم ، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهى .

جاء فى الفصل الرابع من سفر العدد أن بنى إسرائيل لما تمردوا وعصوا أمر ربهم ، سقط موسى وهرون على وجوههما أمامهم ، وأن يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيع ، فهمّ الشعب برجمهما وظهر مجد الرب لموسى فى خيمة الاجتماع (وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم) فشفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون ، وبه تقبل الرب شفاعته ثم قال (إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولى ، لن يروا الأرض التى خلقت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها) واستثنى الرب كالبا فقط ... (أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا وكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة علىّ ، فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون) .

وإن فى هذا العقاب الإلهى لعبرة لأولى الألباب ، يستفيدون منها أن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستعباد تذهب أخلاقها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلة والمسكنة وتأنس بالمهانة ، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطباعا خلقية لها فإذا خرجوا من بيئتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه وتاقت نفوسهم إلى الرجوع إليه ، وهذا شأن البشر فى جميع ما يألفون ، ويجرون عليه من خير وشر .

وقد أفسد ظلم الفراعنة فطرة بنى إسرائيل فى مصر وطبع عليهم بطابع الذلة والمهانة ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السلام ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من العبودية إلى نعيم الحرية ، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع أو كلفوا أمرا يشق عليهم يتطيرون بموسى ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها ، وحين غاب عنهم لمناجاة ربه اتخذوا لهم عجلا من حليهم وعبدوه وكان الله يعلم أن نفوسهم ميتة لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية ونشأ بعده جيل فى حرية البداوة وعدل الشريعة.

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله لكنهم أبوا واستكبروا فأخذهم بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قوما آخرين جعلهم الأئمة الوارثين بهممهم الموافقة لسنته فى الاجتماع .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

التلاوة: القراءة، ولا تكاد تستعمل إلا فى قراءة كلام الله تعالى ، والنبأ: الخبر الذى يهتم به لفائدة ومنفعة عظيمة ، والقربان : مايتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها ، وهو فى الأصل مصدر فلهذا يستوى فيه الواحد وغيره، و بسط اليد إليه: مدها ليقتله؛ البوء : اللزوم ، وفى النهاية لابن الأثير : أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبى أى ألتزم وأقر ، فطوعت أى فشجعت وزينت، والسوءة: مايسوء ظهوره، والويل حلول الشر، والويلة: الفضيحة والبلية أى وافضيحتاه ، والأجل: فى الأصل الجناية ، يقال أجل عليهم شرا أى جنى عليهم جناية ثم استعمل فى تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل سبب ، والبينات الآيات الواضحة، والإسراف: البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حسد اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن دعوته مع وضوح البرهانات الدالة على صدقه وكثرة الآيات المثبتة لنبوته ، حتى هم قوم منهم أن يبسطوا أيديهم لقتله وقتل كبار أصحابه ، كما ذكر ذلك فى قوله : « إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » ذكر هنا قصة ابنى آدم بيانا لكون الحسد الذى صرف اليهود عن الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم وحملهم على عداوته عريقا فى الآدميين وأثرا من آثار سلفهم كان لهؤلاء منه الحظ الأوفر

فلا تعجب من حالهم بعد هذا ، فإن لهم أشباها ونظائر فى البشر كابنى آدم، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء وقتل الأخ أخاه وبذر تلك البذور السيئة فى بنى آدم إلى قيام الساعة .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) جمهرة العلماء على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه، وفى سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم ، اسم أحدهما قاين أو قايين وهو البكر ، وسماه المفسرون والمؤرخون من المسلمين قابيل وهو القاتل ، واسم الثانى هابيل وهو المقتول ؛ وقد ذكروا روايات غريبة عنهما لا تعرف إلا من الوحى وفى وصف الله تعالى ماقاله «بالحق» دليل على أن ما يلوكه الناس سوى ذلك فباطل .

أى واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وغيرهم من الناس ذلك النبأ العظيم نبأ ابنى آدم تلاوة كاشفة للحق مظهرة له مبينة لغرائز البشر وطبائعهم ، وهى أنهم جبلوا على التباين والاختلاف الذى يفضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعلموا الحكمة فيما شرعه الله فى عقاب البغاة من الأفراد والجماعات ويفقهوا أن بغى اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم فى شىء ، وإنما ذلك للحسد والبغضاء ؛ فما مثلهم إلا مثل ابنى آدم إذ حسد شرّهما خيرهما فبغى عليه فقتله وكان مآله ما بينه الله فى الآيات بعد .

(إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) أى اتل عليهم نبأهما وقت تقديم كل منهما القربان وما تبعه من البغى والعدوان فتقبل الله من أحدهما قربانه لتقواه وإخلاصه وطيب نفسه به ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص، ولم يبين لنا سبحانه كيف علما أنه تقبل من أحدهما دون الآخر ، وربما كان ذلك بوحى من الله لأبيهما آدم عليه السلام .

وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما أن أحدهما كان صاحب حرث وزرع

فقرب شر ماعنده وأرداه غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غنم وقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة به نفسه ، كما روى عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار من السماء لتأكله ولا تأكل غيرالمقبول ، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التى ليس لها مستند يوثق به ، والقرابين عند اليهود أنواع :

(منها) المحرّقات للتكفير عن الخطايا بذبح ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب

(ومنها) التقدمات من الدقيق والزيت والألبان .

(ومنها) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى .

والقربان عند النصارى ما يقدسه الكاهن من الخبز والخمر فيتحول فى اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة .

والقربان عند المسلمين اسم لذبائح النسك كالأضاحى وغيرها .

(قال لأقتلنك) أى إن من لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه فأجاب الآخر أحسن جواب .

(قال إنما يتقبل الله من المتقين) أى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله والخوف من عقابه باجتنابه الشرك وسائر المعاصى كالرياء والشح واتباع الأهواء .

وخلاصة جوابه — إننى لم أذنب إليك ذنبا تقتلنى به ، فإن كان الله لم يتقبل قربانك فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين ، فاحمل نفسك على تقوى الله والإخلاص له فى العمل ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وفى الحديث : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب » .

وفى هـــذا من العبرة ما كان ينبغى أن يتعظ به المراءون الذين يبغون بما يتصدقون به الصيت واجتلاب الثناء من الناس وحسن الأحدوثة .

ثم بين سبحانه ما يجب للناس من احترام الدماء وحفظ الأنفس ولا سيما بين الإخوة فقال :

(لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك) أى إن مددت يدك لتقتلنى فما أنا بالمجازى لك على السيئة بسيئة مثلها فذاك لا يتفق مع شمائلى وصفاتى ، إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التى تنافى تقوى الله والخوف من عذابه وهذا ما عناه بقوله :

(إنى أخاف الله رب العالمين) أى إنى أخاف الله وأخشى أن يرانى باسطا يدى إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق ، وهو رب العالمين الذى يغذيهم بنعمه ويربيهم بفضله وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية .

ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجناية ، وليس فى الكلام مايدل على عدم الدفاع ألبتة ، ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل ، وقد روى أحمد والشيخان وغيرهم قوله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار، قيل يارسول الله هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

ثم قفى على عظته البالغة ونصائحه النافعة بالتذكير بعذاب الآخرة ، من قبل أن الوعظ لا يؤثر فى كل نفس فقال :

(إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى إنى أريد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها أن ترجع إن فعلتها ملتبسا بإثمى وإثمك أى بإثم قتلك إياى ، وإثمك الخاص بك الذى كان من آثاره عدم قبول قربانك ، وروى هذا عن ابن عباس .

وقيل إن المراد ـ أن القاتل يحمل فى الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام لأن الذنوب والآثام التى فيها حقوق العباد لايغفر الله منها شيئا حتى يأخذ لكل ذى حق حقه فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كانت له حسنات

توازى ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازى ذلك إن كان له آثام وأوزار وما نقص من هذا أوذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء فى الجنة أو النار.

(فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) أى فتكون بما حملت من الإثمين من أهل النار فى الآخرة جزاء ظلمك ، والنار جزاء كل ظالم .

وقد سلك فى عظته وجوها تأخذ بمجامع اللب ، ويرعوى لها فؤاد المنصف ، فقد تبرأ من كونه سببا فى حرمانه من تقبل القربان ، لأن سبب التقبل عند الله هو التقوى .

ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله ، ثم إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه ، ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنها مثوى الظالمين .

ثم أبان سبحانه أن المواعظ لم تُجد فيه فتيلا ولا قطميرا ، فماذا تغنى الزواجر والعظات فى نفس الحاسد الظالم ؟ فقال :

(فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) أى إنه كان يهاب قتل أخيه وتجبن فطرته دونه ، وما زالت نفسه الأمارة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر فى العاقبة ، والمشاهد بالاختبار من أعمال الناس أن من تحدثه نفسه بالقتل يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن القتل حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك ، فحينئذ يقتل إن قدر .

(فأصبح من الخاسرين) أى من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، فهو فى الدنيا قد قتل أبر الناس به وهو الأخ التقى الصالح ، وخسر الآخرة لأنه لم يصر أهلا لنعيمها الذى أعد للمتقين .

(فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) : لما كان الإنسان فى أعماله موكولا إلى كسبه واختياره ، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم — لم يعرف القاتل كيف يوارى جثة أخيه المقتول الذى يسوؤه أن يراها

بارزة للعيان ، وفى ذلك دليل على أن الإنسان فى نشأته الأولى كان ساذجا قليل المعرفة ، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل كان يستفيد من كل شىء علما واختبارا وتنمية لمعارفه وعلومه ، وقد أعلمنا الله أن القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب ، فإنه تعالى بعث غرابا إلى ذلك المكان الذى هو فيه فبحث فى الأرض أى حفر برجليه فيها يفتش عن شىء كالطعام ونحوه فأحدث حفرة فى الأرض فلما رآها القاتل ـ وقد كان متحيرا فى مواراة أخيه ـ زالت الحيرة واهتدى إلى دفنه فى حفرة مثلها .

وقوله ليريه : أى إنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن .

وحين رأى القاتل الغراب يبحث فى الأرض وتعلم منه سنة الدفن وظهر له جهله وضعفه :

(قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) أى قال وافضيحتى أقبلى فقد آن الأوان لمجيئك ، فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والندم الذى أظهره من الأمور التى تعرض لكل من يفعل شيئا ثم يتبين له خطأ فعله وسوء عاقبته .

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه « لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لأنه أول من سن القتل » .

والندم الذى يكون توبة هو ما يصدر من الشخص خوفا من الله وحسرة على تعدى حدوده ، وهو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « الندم توبة » رواه أحمد والبخارى والحاكم والبيهقى .

(من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) أى إنه بسبب هذا الجرم الفظيع والقتل الشنيع الذى فعله أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا فرضنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أى بغير سبب موجب للقصاص الذى شرعه فى قوله « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» الآية ، أوقتل نفسا بغير سبب فساد فى الأرض يسلب

الأمن والطمأنينة و إهلاك الحرث والنسل كما تفعله عصابات اللصوص المسلحة المستعدة لقتل الأنفس ونهب الأموال أو إفساد الأمر على الدولة التى تقوم بتنفيذ حدود الله تعالى.

من يفعل شيئا من ذلك فكأنما قتل الناس جميعا إذ الواحد يمثل النوع ، فمن استحل دمه بغير وجه حق استحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، والمقصد من ذلك تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه ، أى فكما أن قتل كل الخلق مستعظم مستبشع لدى الناس كلهم فكذلك قتل الواحد مستفظع مستعظم ، وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » .

(ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) أى ومن كان سببا فى حياة نفس واحدة بإنقاذها من موت كانت مشرفة عليه فكأنما أحيا الناس جميعا ، لأن الباعث له على الإنقاذ وهو الشفقة والرحمة واحترام الحياة الإنسانية والوقوف عند حدود الشرائع ، دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من الهلاك لا يدخر وسعا ولا يني فى ذلك .

وفى الآية إرشاد إلى ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع والابتعاد عن ضرر كل فرد ، فانتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له فى الشرع قيام بحق الجميع ، وتقدم أن قلنا إن القرآن كثيرا ما يشير إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها حتى إنه ليسند أعمال المتقدمين منها إلى المتأخرين و يشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم .

وقد وردت قصة ابنى آدم فى الفصل الرابع من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : إن قايين لما قدم للرب من ثمرات الأرض وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه ونظر الرب إلى هابيل وقربانه دون أخيه اغتاظ قايين وقتل هابيل فسأله الرب عنه : أين هو فأجاب : لا أعلم ، هل أنا حارس لأخى ، فلعنه الرب وطرده عن وجه الأرض فندم

واسترحم الرب وخاف أن يقتله كل من وجده ، فقال له الرب لذلك : كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكى لايقتله كل من وجده ، فخرج قايين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن .

(ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) أى ولقد جاءتهم الرسل بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم المؤكدة لوجوب مراعاته والمحافظة عليه لكنها لم تغن عن الكثير منهم شيئا فلم تهذب نفوسهم ولم تطهر أخلاقهم فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم فى أمر القتل يسرفون فيه وفى سائر ضروب البغى والعدوان .

والعبرة فى قصة ابنى آدم أن الحسد كان مثار أول جناية فى البشر ولا يزال هو أسّ المفاسد فى المجتمع فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه نسبا أو جنسا أو دينا فيبغى عليه ولو بما فيه ضرر له ولهذا المحسود .

والأمة التى تنتشر بين أفرادها هذه الرذيلة قلما تتوجه هم أبنائها إلى ما يرقى شأنهم بين الأمم الأخرى ، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم فى سائر مرافق الحياة فيصبحون عبيدا لسواهم بعد أن كانوا سادة ، وأذلاء ، بعد أن كانوا فى عزة وَبُلَهْنِيَةٍ من العيش .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) .

شرح المفردات

المحاربة : من الحرب ضد السلم ، والسلم : السلامة من الأذى والضرر والآفات والأمن على النفس والمال ، والأصل فى معنى كلة الحرب التعدى وسلب المال ، وحربية الرجل : ماله الذى يعيش فيه ، والفساد : ضد الصلاح ، وكل ما يخرج عن وضعه الذى يكون به صالحا نافعا يقال إنه فسد ، ومن كان سببا لفساد شىء يقال إنه أفسده ، فإزالة الأمن على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك إفساد فى الأرض ، والتقتيل : المبالغة فى القتل بكونه حتما لا هوادة فيه ولا عفو من ولى الدم ، والتصليب المبالغة فى الصلب أو تكرار الصلب كما قال الشافعى : يصلب بعد القتل ثلاثة أيام بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القامة ممدود اليدين ، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف : معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والنفى من الأرض : النقل من البلد أو القطر الذى أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين ، فإن كانوا كفارا جاز نفيهم إلى بعض بلاد الإسلام أو بعض بلاد الكفر ، والخزى الذل والفضيحة ، ومن قبل أن تقدروا عليهم: أى من قبل التمكن من عقابهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فظاعة جرم القتل وشدد فى تبعة القاتل فذكر أن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا ــ ذكر هنا العقاب الذى يؤخذ به المفسدون فى الأرض حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، وقد ذهب أكثر الأئمة إلى أن الآيتين نزلتا فى عُكْل وعُرَينة ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أنس « أن ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فاستوخموا المدينة (وجدوها رديئة المناخ) فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذود (بضع من الإبل) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ؛ فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعى النبى واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب فى آثارهم ، فأمر بهم فسمّروا أعينهم (كحلوها بمسامير الحديد المحماة) وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم » زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال: « بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المُثْلة » . وروى أبو داود والنسائى عن أبى الزناد « أن رسول الله لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله فى ذلك فأنزل : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) » الآية .

الإيضاح

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر ـ عقابهم ما سيذكر بعدُ على سبيل الترتيب والتوزيع على جناياتهم ومفاسدهم لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزله الله على رسوله ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق كما قال تعالى فى المصرّين على أكل الربا « فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ » . فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك كما فعل أبو بكر بمانعى الزكاة ، حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف

عنه ، وقوله : ويسعون فى الأرض فسادا أى يسعون فيها سعى فساد أى مفسدين لما صلح من أمور الناس فى نظم الاجتماع وأسباب المعاش .

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت فى قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثة العرنيين الذين خدعوا النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإظهار الإسلام حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم، وقد عاقبهم النبى صلى الله عليه وسلم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ويشترط فى المحاربين ثلاثة شروط :

(١) أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .

(٢) أن يكون ذلك فى الصحراء فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثورى وإسحق .

(٣) أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق .

والجزاء الذى يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة ، والحكمة فى عدم التعيين والتفصيل أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ومنها إهلاك الحرث والنسل أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فللإمام أن يقتلهم إن قتلوا ، أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد العدوان يوجب القتل ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص فغلظ ذلك فى قاطع الطريق وصار القتل حتما لاهوادة فيه ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى فى غير قاطع الطريق فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع فى حقهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوبين فى ممر الطرق يكون سببا لاشتهار إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجرا لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفى من الأرض .

(لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى ذلك الذى ذكر من عقابهم - ذل لهم وفضيحة فى الدنيا ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم فى تدنيس نفوسهم وتدسيتها وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

(إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره إلا من قطعوا الطريق وعاثوا فى الأرض فسادا ثم تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم، فإن توبتهم حينئذ وهم فى قوة ومنعة جديرة بأن تكون توبة خالصة لله صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذاً فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله، ومن ثم لايجمع لهم بين أشد العقاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال :

(فاعلموا أن الله غفور رحيم) أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب فى الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحدا أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص

والدية والعفو ، فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب ، ولم يثبت أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمع له الحاكم .

وإذًا فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوبة إلى أربابها ، فإذا رأى ولىّ الأمر إسقاط حق مالىّ عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة وجب أن يضمنه من بيت المال (وزارة المالية) .

والخلاصة — أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالا مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات بل حكمه حكم سائر المسلمين .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف أن اليهود قد هموا ببسط أيديهم إلى الرسول حسدا منهم له وغرورا بدينهم واعتقادا منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ــ أمر المؤمنين بأن يتقوه ويبتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح ولا يفتتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب.

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه بعدم مخالفة دينه وشرعه ، والوسيلة ما يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه واستحقاق مثوبته فى دار الكرامة .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال فى تفسير الآية أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وروى أحمد والبخارى وأصحاب السنن من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء - الأذان - اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » وروى أحمد ومسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وبهذا يعلم أن هذه الوسيلة هى أعلى منازل الجنة فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبى صلى الله عليه وسلم كافأه النبى صلى الله عليه وسلم بالشفاعة وهى دعاء أيضا ، والجزاء من جنس العمل .

(وجاهدوا فى سبيله) الجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هى طريق الحق والخير والفضيلة ، وكل جهد فى الدفاع عن هذه ، وحمل الناس عليها فهو جهاد فى سبيل الله .

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها ، وحملها على النصفة والعدل فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعدائى وأعداءكم وأتعبوا أنفسكم فى قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة .

(لعلكم تفلحون) أى افعلوا كل هذا رجاء الفوز والفلاح والسعادة فى المعاش والمعاد والخلود فى جنات النعيم .

وبعد فلم يؤثر عن صحابى ولا تابعى ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هى التقرب إلى الله تعالى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كالدعاء ونحوه .

ولكن جد فى القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أى جعلهم وسائل إلى الله تعالى والإقسام بهم على الله ، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيدا عنها ، وكثر هذا حتى أصبح الناس يدعون مع الله أصحاب القبور فى الحاجات أو يدعونهم من دون الله وألف بعض الناس كتبا فى هذا وزعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعى ، وشغف العامة بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » وقوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

والذى عليه المعول فى ذلك أن لفظ التوسل يراد به أحد معان ثلاثة :

(١) التوسل إلى الله بطاعته والتقرب إليه بفعل ما يرضيه ، وهذا فرض حتم وبه جاءت الشرائع وهو أس كل دين .

(٢) التوسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بدعائه وشفاعته كما كان الصحابة يفعلون ، وهذا كان فى حال حياته ولهذا قال عمر بن الخطاب : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » أى بدعائه وشفاعته ، ويوم القيامة يتوسل المؤمنون بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

(٣) التوسل بالله بمعنى الإقسام بذاته وهذا لم تكن الصحابة تفعله فى الاستسقاء ونحوه لا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعد مماته لا عند قبره ولا بعيدا عنه

ولا يعرف هـــذا فى شىء من الأدعية المأثورة عندهم ، وإنما ينقل شىء من ذلك فى أحاديث ضعيفة أو عمن ليس قوله حجة ، وقد قال أبو حنيفة وأصحابه : إن مثل هذا لا يجوز وقالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك ، ولا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به ، وكرهوا أن يقال بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك لأنه لاحق للخلق على الخالق .

والخلاصة — أن الوسيلة ما تتقرب به إلى الله وترجو أن تصل به إلى مرضاته بما شرعه لتزكية نفسك ، وقد دل كتاب الله فى جملته وتفصيله على أن مدار النجاة والفلاح هو الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى: « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » وقال : « لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى » وقال : « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

نعم دلت السنة على أن دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، وثبت أيضا أن النبى صلىّ الله عليه وسلم كان حريصا على إيمان عمه أبى طالب فأنزل الله عليه « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والخلاصة — أن العمدة فى تقرب الإنسان إلى الله وابتغاء مرضاته هو إيمانه وعمله لنفسه ، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه ، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض عباده المكرمين أو طلبه منهم بعد موتهم أن يشفعوا له أى يدعوا له .

كلا إن الطلب من الميت غير مشروع فضلا عن أنه لا يعلم إن كان مقبولا أو غير مقبول ، فإن ذلك من أمور الآخرة « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ » .

وما روى عن النبى صلى الله عليــه وسلم فى ذلك كله ضعيف بل موضوع ، وحديث الأعمى الذى علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة » لا يصلح حجة فى هذا الباب ، لأنه إنما توسل بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته وقد أمره النبى صلى الله عليــه وسلم أن يقول : « اللهم

شفعه فيّ » وقد رد الله عليه بصره حين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحلف بالمخلوقات حرام عند أبي حنيفة والشافعي ، وحكى إجماع الصحابة على ذلك حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليّ من أن أحلف بغير الله صادقا ، وقد جاء في الصحيحين أنه قال : « من كان حالفا فليحلف بالله » وقال : « لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » .

والحلف بالأنبياء ليس بيمين عند مالك وأبي حنيفة والشافعي فلا كفارة فيه ، وكذلك الحلف بالمخلوقات المحترمة كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين .

(إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم) أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم وعبدوا غيره من عجل أو صنم أو وثن وهلكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة لو أن لهم ملك مافي الأرض كلها وضعفه معه ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره وعبادتهم غيره ؛ فافتدوا بذلك كله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضا من عذابهم وعقابهم ، بل هو معذبهم عذابا موجعا مؤلما لهم ، لأن سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم ، والمسلمون يعتقدون أن العمدة في النجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة .

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لبيان أن أساس الفوز فى الآخرة تقوى الله والتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والجهاد فى سبيله .

(يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) المقيم هو الثابت الذى لا يرتحل أبدا ، أى يتمنون الخروج من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها وما هم بخارجين منها البتة ، ثم أكد ذلك بإثبات العذاب المقيم لهم فيها.

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه عقاب المحاربين الذين يفسدون فى الأرض ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة ، وأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد فى سبيله ، وهى الأعمال التى يكمل بها الإيمان وتتهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام وتبتعد عن المعاصى .

ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية ، وجمع فى هذه الآيات بين الوازع الداخلى وهو الإيمان والصلاح والوازع الخارجى وهو الخوف من العقاب والنكال.

الإيضاح

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أى ومن سرق من رجل أو امرأة فاقطعوا يا ولاة الأمور والقضاة والحكام يده من الكف إلى الرسغ ، لأن السرقة

تحصل بالكف مباشرة والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معهما البدن ، والتى تقطع أولا هى اليمنى لأن التناول غالبا يكون بها .

وقد اختلف الأئمة فى المقدار الذى يوجب قطع اليد فى السرقة ، فروى عن الحسن البصرى وداود الظاهرى أنه يثبت القطع بالقليل والكثير لظاهر الآية والحديث « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجمل فتقطع يده » رواه الشيخان عن أبى هريرة ، وجمهور العلماء من السلف والخلف على أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار « ربع مثقال من الذهب » أو ثلاثة دراهم من الفضة لحديث عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا » رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ، ولحديث ابن عمر فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم قطع فى مِجَنّ (تُرْس) ثمنه ثلاثة دراهم. ويرى الحنفية أن القطع لا يكون إلا فى عشرة دراهم فأكثر لا مادونها ، ولا بد أن يكون المال محفوظا فى حرز وإلا فلا قطع .

وتثبت السرقة بالإقرار أو البينة ، ويسقط الحد بالعفو عن السارق قبل رفع أمره إلى الإمام .

(جزاء بما كسبا نكالا من الله) النكال من النكل (بالكسر) وهو قيد الدابة ، فالنكال ما ينكل الناس ويمنعهم أن يسرقوا .

أى اقطعوا أيديهما جزاء لهما بعملهما وكسبهما السيء ونكالا وعبرة لغيرهما ، ولا عبرة أعظم من قطع اليد الذى يفضح صاحبه طول حياته ويسمه بميسم العار والخزى ، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم وأرواحهم ، فالأرواح كثيرا ما تزهق إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من أخذ الأموال .

(والله عزيز حكيم) أى عزيز فى انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهل المعاصى ، حكيم فى صنعه فهو يضع الحدود والعقوبات على حسب الحكمة

التي توافق المصلحة ، فما أمر الله بأمر إلا وهو صلاح ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد وكأنه يقول : اشتدوا على السراق فاقطعوهم يدا يدا ورجلا رجلا .

(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) أى فمن تاب من السرّاق ورجع عن السرقة بعد ظلمه لنفسه بعمله مانهاه الله عنه من سرقة أموال الناس وأصلح نفسه وزكاها بأعمال البر فإن الله يقبل توبته ويرجع إليه بالرضا ويغفر له ويرحمه .

ولا يسقط الحد عن التائب ولا تصح التوبة إلا بإعادة المال المسروق بعينه إن كان باقيا وإلا فدفع قيمته إن قدر .

(ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قدير) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله له ملك السموات والأرض يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله ، ومن حكمته أن وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقا كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين فى الأرض ، ويغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه إذا صدقا فى التوبة وأصلحا عملهما ويعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له وتأمينا لعباده من أذاه وشره ، كما يرحم من يشاء من التائبين برحمته وفضله ، ترغيبا لهم فى تزكية أنفسهم ، وهو القادر على كل شىء من التعذيب والرحمة لا يعجزه شىء فى تدبير ملكه .

يَأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ
أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ
فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣).

شرح المفردات

الحزن: ألم يجده الإنسان عند فوت مايحب، وسارع إلى الشيء: إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه، وأسرع فيه: إذا أسرع فى أعماله وهو داخل فيه، وهنا كان الكفار داخلين فى ظرف الكفر وهو محيط بهم سرادقه، والفتنة: الاختبار كما يفتن الذهب بالنار فيظهر مقدار مافيه من الغش والزغل، والسحت: ما خبث من المكاسب وحُرِّم فلزم عنه العار وقبيح الذكر كثمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة فى الحكم، والقسط: العدل.

المعنى الجملى

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال: «مر النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى محمما[1] مجلودا، فدعاهم فقال: أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قالوا: نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ قال: اللهم لا، ولولا

(١) التحميم: وضع الحمة أى الفحمة فى الوجه، وهو كالتسخيم الذى جاء فى الرواية الأخرى، من السخام: وهو سواد القدر.

أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه و إذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ـ إلى قوله (إن أوتيتم هذا فخذوه) » .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبى صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم إن فيها الرجم (فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ولكنا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما فلقد رأيته يجأ عليها (ينحنى) يقيها الحجارة بنفسه » .

الإيضاح

(يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله يأيها النبى فى مواضع كثيرة وما خاطبه بيأيها الرسول إلا فى هذا الموضع وموضع آخر بعده « يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم (يا رسول الله) وجهل هذا بعض الأعراب لخشونتهم وسذاجة فطرتهم فكانوا ينادونه (يا محمد) حتى أنزل الله « لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا » فكفوا عن ندائه باسمه .

أى لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون فى إظهار الكفر والتحيز إلى أعدائه المؤمنين عند ما يرون الفرصة سانحة ، فالله يكفيك شرهم ويقيك ضرهم وينصرك عليهم وعلى من شايعهم وناصرهم .

والنهى عن الحزن وهو أمر طبعى وليس للإنسان اختيار فيه يراد به النهى عن لوازمه التى يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب وتعظيم شأنها ، وبذا يتجدد الألم ويبعد أمد السلوى .

ثم بين أولئك المسارعين فى الكفر من المنافقين فقال :

(من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أى لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

(ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) الذين هادوا هم اليهود ، والمراد بالسماع سماع القبول والاعتقاد بصحة ما يقال ، والمراد بالكذب ما يقوله رؤساؤهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى أحكام دينهم التى يتلاعبون فيها بأهوائهم .

أى إن هؤلاء القوم كثيرو الاستماع لكلام الرسول صلوات الله عليه والإخبار عنه لأجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات ، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم ، يبلغون الرؤساء أعداء الإسلام كل ما يقفون عليه ليكون ما يفترون عليه من الكذب متقبلا لأنه مبنى على وقائع معينة ، يزيدون فى روايتها وينقصون ، ويحرفون منها ما يحرفون ؛ وقد جرت العادة بأن الكذب لا يجد له نفوقا بين الناس إلا ممن يشاهد ويرى ، أما البعيد فيظهر اختلاق كذبه سريعا ، ولهذا كانوا ينقلون تلك الأكاذيب لمن لم يأت النبى صلى الله عليه وسلم من الرؤساء وذوى الكيد ليسمعوا منه بآذانهم إما كبرا وتمردا وإما خوفا على أنفسهم وهذا معنى قوله : سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، أى سماعون لأجلهم .

(يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أى يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه

فى مواضعه إما تحريفا لفظيا بإبدال كلة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفا معنويا بحمل اللفظ على غير ما وضع له .

(يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى يقولون لمن أرسلوهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وأرادوا أن يحابوهما بعدم رجمهما ، إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضا عن الرجم فخذوها وارضوا بها ، وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

وقد سبق أن ذكرنا أنهم جاءوه فسألهم عن حد الزناة فى التوراة ، فقالوا : نفضحهم ويجلدون وجاءوا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع فإذا هى آية الرجم ، فاعترفوا بصدق النبى صلى الله عليه وسلم وظهر كذبهم وعبثهم بشريعتهم وكتابهم .

(ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) أى ومن يرد الله أن يختبر فى دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئا من الهداية والرشد ، فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم ، فهم يقبلون الكذب دون الحق وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم اتباعا لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوى الجاه فيهم .

فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم فى الكفر ولا تطمع فى جذبهم إلى الإيمان ، فإنك لا تملك لأحد نفعا ، وإنما عليك البلاغ والبيان ، ولا تخف عاقبة نفاقهم فإنما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان ، ولهم الخزى والهوان .

(أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أى إن أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لأن إرادته إنما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة فى نفوس البشر ، من أنها إذا دأبت على الباطل ومرنت على الكيد والشر وألفت الخلاف والضر تحيط بها خطيئتها وتطبق عليها

ظلمتها فلا يبقى لديها لنور الحق منفذ ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذى جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية ، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طباعهم سواها فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهيرهم وإلا كان ذلك خلافا لما اقتضته سننه ، وتبديلا لنظمه فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فخزى المنافقين فى الدنيا هتك أستارهم باطلاع الرسول على كذبهم وخوفهم من القتل ، وخزى اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم فى كتمان نصوص كتابهم فى إيجاب الرجم وعلو الحق على باطلهم ، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز ، كما يصدق على من يبطنون الكفر والنفاق فى كل زمان ، وعذابهم فى الآخرة نجزم بحصوله ، ولا نعلم مقدار كنهه وحقيقة أمره .

(سماعون للكذب أكالون للسحت) أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى وإفادة اهتمام المتكلم بأمره وبيان أن أمرهم كله مبنى على الكذب الذى هو شر الرذائل وأضر المفاسد، وهكذا شان الأمم الذليلة تلوذ بالكذب وتدرأ به عن نفسها ماتتوقع من ضُرّ ربما يلحقها .

وكذلك انتشر بين أفرادها أكل السحت لأنها كانت تعيش بالمحاباة والرشا فى الأحكام ففسدت بينها أمور المعاملات واستبدلت الطمع بالعفة كذلك، وكان أحبار اليهود ورؤساؤهم عصر التنزيل كذابين أكالين للسحت من رشوة وغيرها من الدناءات كما هو دأب سائر الأمم عهد فسادها وأزمان انحطاطها .

(فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) أى فإن جاءوك متحاكمين إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم فى بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون فى كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام فى البيوع والمواريث وسائر العقود إلا فى بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرون عليه ويمنعون من الزنا كالمسلمين فإنهم نهوا عنه ولا يرجمون ، إذ من شروط الرجم الإسلام .

(وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحكم بينهم فلن يضروك شيئا من الضرر فالله حافظك من ضرهم .

(وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) أى وإن اخترت أن تحكم بينهم فاحكم بالعدل الذى أمرت به وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام .

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانيين وعندهم التوراة وهى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقته إياها .

وخلاصة ذلك — أن أمرهم من أعجب العجب ، وما سبب إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيمانا صحيحا ولا هم مؤمنون بك إذ المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما رغب إليه شرع من الله أيضا أيد به الأول أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك .

ولكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها لأنه لم يوافق أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق أهواءهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يأت على وفق مرادهم .

وقد جاء فى سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها ، وإذا وجد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فتنزع الشر من إسرائيل ، وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة

لرجل فوجدها رجل فى المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) .

تفسير المفردات

التوراة : الكتاب الذى أنزل على موسى ، والذين هادوا : هم اليهود ، والربانيون : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، والأحبار : واحدهم حَبْر وهو العالم ، وبما استحفظوا من كتاب الله أى بما طلب إليهم حفظه منه ، وشهداء

أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، قفاه به تقفية : جعله يقفو أثره كما قال : « وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ » والفاسقون أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه ، وطلبهم من النبى صلى الله عليه وسلم الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهواءهم وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون .

ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبنى إسرائيل ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، وفى ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ويهتدوا بهديه وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هدى دينهم هو الذى عماهم عن نور القرآن والاهتداء به .

الإيضاح

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) أى إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق ونور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم ، وبهذا الهدى أخرج بنى إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودنياهم .

(يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أى أنزلناها قانونا يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين ـ موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل إلى عيسى عليه السلام ، للذين هادوا أى لليهود خاصة ، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها .

(والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) أى ويحكم بها الربانيون

والأحبار فى الأزمنة التى لم يكن فيها أنبياء معهم أو يحكمون مع وجودهم بإذنهم بسبب ماأودعوه من الكتاب وائتمنوا عليه وطلب منهم أنبياؤهم حفظه ، كالعهد الذى أخذه موسى بأمر الله على شيوخ بنى إسرائيل بعد أن كتب التوراة أن يحفظوها ولايحيدوا عنها . ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال: أنا ربانى هذه الأمة ، وأطلق لقب حبر الأمة فى الإسلام على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأطلق لقب الربانى على علىّ المرتضى عليه الرحمة .

وقال ابن جرير الربانيون جمع ربانى وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم ، والأحبار جمع حبر وهو العالم المحكم للشىء اهـ .

(وكانوا عليه شهداء) أى وكان السلف الصالح منهم رقباء على الكتاب وعلى من تحدثه نفسه للعبث به كما فعل عبد الله بن سلام فى مسألة الرجم ، لا كما فعل الخلف من كتمان بعض أحكامه اتباعا للهوى أو خوفا من أشرافهم إن أقاموا عليهم حدوده أو طمعا فى صِلاتهم إذا هم حابوهم .

ومما كتموه صفة النبى صلى الله عليه وسلم والبشارة به .

ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا زمن التنزيل لا يخافون الله فى الكتمان والتبديل بعد أن قص سيرة السلف الصالح من بنى إسرائيل لعلهم يعتبرون ويرعوون عن غيهم فقال :

(فلا تخشوا الناس واخشون) أى إذا كان الحال كما ذكر أيها الأحبار ولا شك أنكم لا تنكرونه كما تنكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة أسلافكم — فلا تخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب لخشية أحد أو طمعا فى منفعة عاجلة منه ، واخشونى واقتدوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأحبار واحفظوا التوراة ولا تعدلوا عن ذلك فإن النفع والضر بيدى .

(ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) أى ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه أو غيرهما من الحظوظ العاجلة

التى تصدكم عن الاهتداء بآيات الله وتمنعكم عن الخير العظيم الذى تنالونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) أى وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتحميم وكتمانهم الرجم وقضائهم فى بعض قتلاهم بدية كاملة وفى بعضها بنصف الدية ، والله قد سوى بين الجميع فى الحكم — فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به .

قال الرازى نقلا عن عكرمة : إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله — إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال: الثلاث الآيات التى فى المائدة ومن لم يحكم بما أنزل الله الخ ليس فى الإسلام منها شىء هى فى الكفار ، وعن الشعبى أنه قال: الثلاث الآيات التى فى المائدة أولها فى هذه الأمة والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى.

وخلاصة المعنى — ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له كان كافرا لجحوده به واستخفافه بأمره .

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) أى إن الجروح ذوات قصاص يعتبر فى جزائها المساواة بقدر الاستطاعة .

وقد جاء فى التوراة فى الفصل الحادى والعشرين من سفر الخروج (وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برض) .

وجاء فى الفصل الرابع والعشرين من سفر اللاويين (وإذا أمات أحد إنسانا

أنه يقتل ، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس وإذا أحدث إنسان فى قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به ، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا فى الإنسان كذلك يحدث فيه) .

(فمن تصدق به فهو كفارة له) أى فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص وعفا عن الجانى فهذا التصدق كفارة له ، يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه .

وهذا كقوله تعالى « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من تصدق من جسده بشىء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه ، ويقرب منه قوله صلى الله عليه وسلم «أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم؟ كان إذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس » .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) أى إن كل من أعرض عما أنزل الله من القصاص المبنى على قاعدة العدل والمساواة بين الناس وحكم بغيره فهو من الظالمين ، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر وغمص حق المفضل عليه وظلمه .

(وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا طريقهم جاريا على هديهم مصدقا للتوراة التى تقدمته بقوله وعمله ، فشريعة عيسى عليه السلام هى التوراة ، وقد نقلوا عنه فى أناجيلهم أنه قال : ما جئت لأنقض الناموس (شريعة التوراة) وإنما جئت لأتمم ـ أى لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام والمواعظ ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس .

(وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) أى وأعطيناه الإنجيل حال كونه مشتملا على الهدى ومنقذا من

الضلال فى العقائد والأعمال كالتوحيد والتنزيه النافى للوثنية التى هى مصدر الخرافات والأباطيل .

وعلى النور الذى يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه ، وهو مصدق للتوراة التى تقدمته أى إنه مشتمل على النص بتصديقها زيادة على تصديق المسيح لها بقوله وعمله .

وقد وصف القرآن الإنجيل بمثل ما وصف به التوراة و بكونه مصدقا لها وجعله هدى وموعظة للمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداه لحرصهم عليه وعنايتهم به .

والسر فى ذلك أن فيه أسرار الشريعة و بيان حكمتها والمقصد منها ومعرفة أن بعد هذه التوراة وهذا الإنجيل هداية أعم وأشمل وهى التى يجىء بها النبى الأخير (الْبَارَقْلِيطُ) الأعظم .

(وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) أى وقلنا لهم ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام ، والمراد وأمرناهم بالعمل به ، فهو كقوله فى أهل التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » .

وخلاصة ذلك — زجرهم عن تحريف مافى الإنجيل وتغييره مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التوراة .

(ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أى المتمردون الخارجون عن حكمه .

والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام وأن عيسى عليه السلام كان مستقلا بشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلّت أو كثرت ، لا بما فى التوراة خاصة ، و يشهد لذلك حديث البخارى « أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها وأهل الإنجيل الإنجيلَ فعملوا به » .

وقال الشَّهرُستانى فى الملل والنحل (جميع بنى إسرائيل كانوا متعبدين بشريعة موسى عليه السلام مكلفين التزام أحكام التوراة .

والإنجيل النازل على عيسى عليه السلام لا يحتضن أحكاما ولا يستبطن حلالا ولا حراما ولكنه رموز وأمثال ومواعظ وما سواها من الشرائع والأحكام محال على التوراة) .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) .

شرح المفردات

المهيمن: على الشيء القائم على شئونه وله حق مراقبته وتولى رعايته ، والشرعة والشريعة : مورد الماء من النهر ونحوه ، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة ، ومن ذلك شريعة الإسلام لشروع أهلها فيها ، والمنهاج : السبيل والسنة ، والابتلاء: الاختبار ، استبقوا ابتدروا وسارعوا ، أن يفتنوك أي يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بنى إسرائيل وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور وما ألزمهم به من إقامتهما وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما .

ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من الكتب قبله وأن الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر.

الإيضاح

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) أى وأنزلنا إليك أيها الرسول الكتاب (القرآن الكريم) الذى أكملنا به الدين مشتملا على الحق مقررا له « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل ، ومهيمنا وشهيدا عليها بما بينه من حقيقة أمرها وما كان من حال من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وتحريف كثير مما بقى وتأويله والإعراض عن العمل به .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال (ومهيمنا عليه) يعنى أمينا عليه يحكم على ما كان قبله من الكتب .

(فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلهية وهو أنه رقيب وشهيد عليها ، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام ، دون ما أنزله إليهم إذ شريعتك ناسخة لشريعتهم .

(ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى ولا تتبع ما يريدون وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتماله مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذى لا شك فيه ولا ريب .

(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أى لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها ، ومنهاجا وطريقا فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم و إصلاح سرائرهم .

من قبل أن الشرائع العملية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وطبائع البشر واستعداداتهم و إن اتفق الرسل جميعا فى أصل الدين وهو توحيد الله والإخلاص له فى السر والعلن و إسلام الوجه له .

روى عن قتادة أنه قال فى تفسيرها : أى سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء كى يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولكن الدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل؛ وروى عنه أنه قال الدين واحد والشريعة مختلفة .

ومن هذا يفهم أن الشريعة هى الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل وينسخ اللاحق منها السابق وأن الدين هو الأصول الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأنبياء .

وهذا هو العرف الجارى الآن إذ يخصون الشريعة بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام .

والخلاصة — أن الشريعة اسم الأحكام العملية ، وأنها أخص من كلمة (الدين) وتدخل فى مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدين لله تعالى بعمله ويخضع له و يتوجه إليه مبتغيا مرضاته وثوابه بإذنه .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أى ولو شاء تعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد تسيرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد واحد وأخلاق واحدة وطور واحد فى معيشتكم فتصلح لكم شريعة واحدة فى كل الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التى يقف استعدادها عند مستوى معين كالطير أو كالنحل ـ لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه .

(ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) أى ولكن لم يشأ ذلك ، بل شاء أن يجعلكم نوعا ذا عقل وفكر واستعداد للفهم والعلم ، يرتقى فى أطوار الحياة بالتدريج ويخضع لسنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل أطواره وفى سائر جماعاته ؛ فكانت الشرائع فى أطوار الطفولة من نوع يغلب عليه المادة ، وفى طور التمييز تغلب عليه العواطف والوجدانات النفسية ، وفى طور الرشد واستقلال العقل ختمت الشرائع والمناهج بالدين المحمدى المبنى على فتح باب الاجتهاد الفكرى ، وجعل أمره شورى فى القضاء والسياسة وأصول الاجتماع بين أولى العلم والرأى .

والخلاصة — إنه سبحانه عاملنا معاملة المختبر لاستعدادنا فيما آتانا من المناهج والشرائع لتظهر حكمته فى تمييز نوعنا عن غيره من الأنواع التى تدب على وجه البسيطة ، بأن جمع لنا بين الحيوانية والملكية .

وإنك لو نظرت إلى سالف الشرائع ترى الشريعة اليهودية مبنية على الشدة ، وليس لأهلها فيها رأى ولا اجتهاد إذ هى نزلت لقوم ألفوا الذل والاستعباد فوجب أخذهم بالشدة والصرامة ، وترى الشريعة النصرانية تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم للمتغلبين عليهم من أهل السلطة والحكم ويقبلوا كل ما يسامون به من ذل وخسف ويجعلوا عنايتهم بالأمور الروحية وتربية الوجدانات النفسية ، وترى الديانة الإسلامية قائمة على أساس الاستقلال والعقل جامعة بين مصالح الروح والجسد « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ولا يليق ذلك إلا بأمة بلغت سن الرشد العقلى والارتقاء الفكرى ، ومن ثم كانت أحكامها الدنيوية قليلة فى كتابها ، وفوض الأمر فيها إلى الاجتهاد ، إذ الراشد يفوض أمره إلى نفسه ، ومن ثم صارت صالحة لكل زمان ومكان ، إذ مدارها على الاجتهاد وطاعة أولى الأمر ، فمنع الاجتهاد فيها يبطل مزيتها ويجعلها لا تصلح لجميع الأزمان ولا لجميع الأمكنة ، إذ أنك تعلم أن للزمان والمكان والأحوال من التشريع ما يوافقه ، انظر إلى الإمام الشافعى تجد أنه حين كان بالعراق وضع أسسا للتشريع والأحكام (المذهب القديم) فلما انتقل إلى مصر ورأى عادات

أهلها وأطوارهم غير كثيرا من تشريعه إلى ما يناسب الشعب الذى يعيش بين ظهرانَيْه (المذهب الجديد) وما سر هذا إلا ما علمت من خضوع التشريع الزمان والمكان .

(فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ماهو خير لـكم فى دينكم ودنياكم ، وابتدروا الخيرات وصالح الأعمال انتهازا للفرصة وإحرازا للفضل فالسابقون السابقون أولئك المقربون .

وإنكم إلى الله دون غيره ترجعون جميعا فى الحياة الثانية فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من أمور الدين، ويجازى المحسن على قدر إحسانه والمسىء بإساءته فاجعلوا الشرائع سببا للتنافس فى الخيرات ، لا لإقامة الشحناء والعداوة بين الأجناس والعصبيات .

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى إنا أنزلنا إليك الـكتاب فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه : أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة فى ذلك كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام ، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل، واحذرهم أن يفتنوك وينزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله ابن صوريا وشاس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنخاصمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم . (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ــ إلى قوله : لقوم يوقنون) اهـ . يريد أن الحـكمة فى إنزال هذه الآية إقرار النبى على ما فعل والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله ، وعدم الانخداع لليهود .

(فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى فإن أعرضوا عن حكمك بعد تحاكمهم إليك ، فما ذاك إلا لأن الله يريد أن يعذبهم فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم ، لأن استثقالهم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لعلك تتبع أهواءهم ، ومحاولتهم لفتنتك عن بعض ما أنزل إليك ــ كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع ولابد أن تكون نتيجتها وقوع العذاب بهم ، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل ، فقد أجلى النبى صلى الله عليه وسلم بنى النضير عنها وقتل بنى قريظة .

(وإن كثيرا من الناس لفاسقون) أى متمردون فى الكفر مصرون عليه خارجون من الحدود والشرائع التى اختارها الله لعباده .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين وإعراضهم عن ذلك النور الذى أنزل إليه .

(أفحكم الجاهلية يبغون ؟) أى أيتولون عن قبول حكمك بما أنزل الله فيبغون حكم الجاهلية المبنى على التحيز والهوى لجانب دون آخر وترجيح القوى على الضعيف .

روى «أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة كانت بينهم وبين بنى قريظة وطلب بعضهم من النبى صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرظى ضعفى دية النضيرى لمكان القوة والضعف فقال عليه السلام : القتلى بَوَاء (سواء) فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية » .

وخلاصة ذلك — توبيخهم والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصريح الهوى .

(ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) أى لا أحد أحسن حكما من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويذعنون لشرعه ، لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق

من الحاكم ، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه ، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلهيه والقوانين البشرية .

والخلاصة — إن مما ينبغى التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل، وفى الأول تفضيل القوى على الضعيف واستذلاله واستئصال شأفته ، وفى الثانى العدل الذى يستقيم به أمر الخلق ، وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الولاية : ولاية التناصر والمحالفة على المؤمنين ، فى قلوبهم مرض أى إن إيمانهم معتل غير صحيح ، الدائرة : ما يدور به الزمان من المصايب والدواهى التى تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، والفتح: القضاء، وهو يكون بفتح البلاد و بغير ذلك، وحبطت أى بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها نفاقا كالصلاة والصيام والجهاد معكم فخسروا أجرها وثوابها .

المعنى الجملى

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: «جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثير عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالاة موالىّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى (يا أبا الحباب أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه) قال إذن أقبل فأنزل الله: يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى .... إلى قوله والله يعصمك من الناس».

وروى أرباب السير: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه أحدا ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم. وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة. وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يئول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون.

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به، فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة - بنى قَيْنُقَاعَ وبنى النضير وبنى قريظة - فحاربته بنو قينقاع بعد بدر وأظهروا البغى والحسد، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر، ثم نقض بنو النضير العهد لما خرج إلى غزوة الخندق وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها وكان نصارى العرب والروم حربا عليه كاليهود.

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ) أى لا يوالى أفراد أو جماعات من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المعاندين للنبى والمؤمنين ، ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خذل المسلمون وغلبوا على أمرهم .

قال ابن جرير : إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فهو منهم فى التحزب على الله ورسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريئان . . . إلى أن قال غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك اه .

(بعضهم أولياء بعض) أى إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، وهذه العبارة كالعلة والسبب للنهى ، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع حربا للرسول ومن معه من المؤمنين .

(ومن يتولهم منكم فإنه منهم) أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه فى الحقيقة منهم لا منكم لأنه معهم عليكم .

قال ابن جرير فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم ، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمُه حكمَه اه .

ومن هذا تعلم أنه إذا وقعت الموالاة والمحالفة والمناصرة بين المختلفين فى الدين

لمصالح دنيوية لاتدخل فى النهى الذى فى الآية ، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها ، فمثل هذا لا يكون محظورا .

ثم ذكر العلة والسبب فى الوعيد السابق فقال:

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن من يوالى أعداء المؤمنين وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية فى غير موضعها ، والله لا يهديه لخير ولا يرشده إلى حق .

(فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم) أى فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين كعبد الله بن أبى وغيره من المنافقين ، يمتون إلى اليهود بالولاء والعهود ويسارعون فى هذه السبيل التى سلكوها ، وكلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنا وثباتا .

(يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) أى يقولون بألسنتهم نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصايب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا ، فعلينا أن نتخذ لنا أيادى عندهم فى السراء تنتفع بها إذا مستنا الضراء .

وخلاصة ذلك — إنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب ، لأنهم فى شك من نصر الله لنبيه وإظهار دينه على الدين كله ، إذ لم يوقنوا بنبوته ولا بصدقها ، وهكذا شأن المنافقين فى كل زمان ومكان ، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابتها دائرة ، فتتغلغل نفوذ هذه الدول فى أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها فى بلادها بعملهم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) هذا رد من الله تعالى على المنافقين عصر التنزيل وقطع لأطماعهم وبشرى للمؤمنين بحصول ما يتمنون أى فلعل الله بفضله وصدق ما وعد به رسوله يأتى بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى ، أو بأمر من عنده فى هؤلاء

المنافقين كفضيحتهم أو الإيقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه وأضمروه فى أنفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين ، وتوقع الدوائر عليهم .

والفتح إما فتح مكة الذى كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده لرسوله ، وإما فتح بلاد اليهود فى الحجاز كخيبر وغيرها ، والأمر إما الإيقاع باليهود وإجلاؤهم عن موطنهم وإخراجهم من حصونهم وصياصيهم ، إما القهر والإيجاف عليهم بالخيل والركاب كبنى قريظة ، وإما إلقاء الرعب فى قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم كبنى النضير ، وإما ضرب الجزية على أهل الكتاب فينقطع أمل المنافقين ويندمون على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم .

(ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟) أى يقول بعض المؤمنين متعجبين من حال المنافقين إذ أقسموا بأغلظ الأيمان لهم إنهم معكم وإنهم معاضدوكم على أعدائكم اليهود ، فلما حل باليهود ما حلّ أظهروا ما كانوا يسرونه من موالاتهم وممالأتهم على المؤمنين كما قال فى سورة براءة « وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أى فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية .

(حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) أى ويقول المؤمنون حبطت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها نفاقا كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا ، فخسروا بذلك ما كانوا يرجون لها من أجر وثواب لو صلحت حالهم وقوى إيمانهم .

وفى هاتين الآيتين إخبار بالغيب وقد صدق الله وعده وخذل الكافرين وفضح المنافقين والعاقبة للمتقين ، ولكن أنّى لهم أن يعتبروا بمثل هذا؟ « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ

فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يتولى الكافرين من دون الله يعد منهم ، وأن الذين يسارعون فيهم من مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم ، فإن أخفوا ذلك فإظهارهم للايمان نفاق .

بين هنا حقيقة دعمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل ، فالحقيقة هى أن المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم ولا يعتد بهم فى نصر الدين و إقامة الحق ، فالله إنما يقيم دينه بصادق الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخا فى الحق وقوة على إقامته ، و يحبونه فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع وأهل وولد .

وخبر الغيب أنه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهرا ولا يضره ذلك لأن الله تعالى يسخر من ينصره و يحفظه .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) .

روى ابن جرير عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس، فلما قبض الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد ـ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس ـ قال : المرتدون نصلى ولا نزكى ، والله لا تغصب أموالنا ، فكلم أبو بكر فى ذلك فقيل له :

إنهم لو قد فقهوا لهذا أعطوها وزادوها فقال : لا والله ، لا أفرق بين شيء جمع الله بينه ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل وحرق بالنيران أناسا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقروا بالماعون (الزكاة) صغرة (واحدهم صاغر وهو المهين الذليل) أقمياء (واحدهم قمىء وهو الذليل الضعيف) فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مُجْلِية فاختاروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم أن يستعدوا أن قتلاهم فى النار ، وأن قتلى المؤمنين فى الجنة ، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم وما أصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال اه .

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ، قاله قتادة والضحاك ، ورجح ابن جرير أن الآية نزلت فى قوم أبى موسى الأشعرى من أهل اليمن لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : — يعنى قوم أبى موسى — وإن لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبى بكر لأن الله وعد بأن يأتى بخير من المرتدين بدلا منهم ولم يقل إنهم يقاتلون المرتدين ويكفى فى صدق الوعد أن يقاتلوا ولو غير المرتدين .

وقد ارتد كثير من القبائل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبعده ، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة منها ثلاث فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وهم :

(١) بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسى وكان كاهنا ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبى صلى الله عليه وسلم ، فكتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يدى فيروز الديلمى بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فسر به المسلمون ، وقبض عليه السلام من الغد .

(٢) بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، وقد تنبأ مسيلمة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك : أما بعد

فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون ، فكتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب (السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وكان ذلك سنة عشر ، وحاربه أبو بكر ، وقتله وحشى قاتل حمزة وكان يقول: قتلت فى جاهليتى خير الناس وفى إسلامى شر الناس .

(٣) بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر خالد بن الوليد فانهزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

وارتدت سبع فى عهد أبى بكر وهم :

(١) فزارة قوم عيينة بن حصن .

(٢) غطفان قوم قُرَّة بن سلمة القشيرى .

(٣) بنو سليم قوم الفجاءة بن عبدياليل .

(٤) بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

(٥) بعض بنى تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة، وقد تنبأت وزوجت نفسها من مسيلمة ولها قصص طويل فى التاريخ، وصح أنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها .

(٦) كِندة قوم الأشعث بن قيس .

(٧) بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد ، وقد كفى الله المؤمنين شرهم على يد أبى بكر رضى الله عنه ، وارتدت قبيلة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتدا . ويروى أن عمر كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتابا جاء فيه : إن جبلة ورد إلىّ فى سراة قومه فأسلم فأكرمته ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بنى فزارة فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه فاستعدى الفزارى على جبلة إلىّ فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص، فقال: أتقتص منى وأنا ملك وهو سوقة، فقلت شملك وإياه الإسلام ،

فما تفضله إلا بالعافية ، فسأل جبلة التأخير إلى الغد ، فلما كان من الليل ركب مع بنى عمه ولحق بالشام مرتدا . وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصرت بعد الحق عارا للطمة ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
فأدركنى منها لجاج حمية فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى صبرت على القول الذى قاله عمر

وهؤلاء المرتدون لم يقاتلهم أحد ، فإن أبا بكر هو الذى قاتل جماهير المرتدين بمن معه من المهاجرين والأنصار وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات .

(١) إنه تعالى يحبهم وحبه تعالى و بغضه شأن من شئونه لا نبحث عن كنهه ولا عن كيفيته .

(٢) إنهم يحبون الله تعالى وحب المؤمنين لله جاء فى غير موضع من القرآن كقوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ » وفى حديث أنس فى الصحيحين « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

(٣ ، ٤) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين وهما بمعنى ما جاء فى قوله تعالى : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٥) الجهاد فى سبيل الله ، وسبيل الله طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاته تعالى ، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال فى قتال أعداء الحق ، وهو من أكبر آيات المؤمنين الصادقين .

(٦) كونهم لا يخافون لومة لائم ، وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين ، إذ هم لا يرغبون فى جزاء أو ثناء من الناس بل يعملون العمل لإحقاق الحق و إبطال الباطل .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى ذلك الذى تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده وبه يمتازون عن غيرهم ، وهذه المشيئة وفق السنن التى أقام بها أمر النظام فى خلقه ، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسيا كان أو بدنيا ، ومنه سبحانه آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية حسية ومعنوية ، كما أن منه التوفيق والهداية واللطف والمعونة .

(والله ذو الفضل العظيم) فعلينا ألا نغفل عن فضله ومننه ، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له والإنابة إليه ، والإخبات والعبادة له .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآيات المتقدمة عن موالاة الكافرين ، أمر فى هذه الآية بموالاة من تجب موالاتهم وهم الله ورسوله والمؤمنون .

الإيضاح

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) أى لا ولىّ لكم أيها المؤمنون ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بتلك الصفات الآتية بعد .

وفى هذا تعريض بمن ينصر مرضى القلوب فى توليهم الكفار من دون الله .

ولما كانت كلمة (المؤمنين) تشمل كل من أسلم ولو ظاهرا بين المراد منها بقوله :

(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) قال فى الأساس : العرب تسمى من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راكعا ، وقال أبو مسلم المراد بالركوع الخضوع

أى إن المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لـكم هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدونها حق الأداء باشتمالها على الآداب الظاهرة والباطنة ، ويعطون الزكاة مستحقيها وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهدوء بال لاخوفا ولا رياء ولا سمعة ، دون المنافقين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها ؛ فإذا هم قاموا إليها قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

(ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) أى ومن يتولهم الله بالنصرة والولاية والرسول والذين آمنوا بالتبع لولايته فهم الغالبون والله ناصرهم ، ومن يتول الله يتول الإيمان به والتوكل عليه ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم والاستنصار لهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون ولا يغلب من يتولاهم لأنهم حزب الله .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ

قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) .

شرح المفردات

نقم منه كذا: إذا أنكره عليه وعابه به بالقول أو الفعل، والمثوبة: من ثاب إليه إذا رجع، ويراد به الجزاء والثواب، والطاغوت: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع وهو يشمل كل من أطاعوه فى معصية الله تعالى، والسحت: الدنىء من المحرمات .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون الله وبين العلة فى ذلك فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض ولا يوالى المؤمنين منهم أحد، ولا يواليهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر .

أعاد النهى هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذى لأجله كان النهى، وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء) أى لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ومن قبل نزول كتابنا — أولياء وأنصارا حلفاء فإنهم لا يألونكم خبالا وإن أظهروا لكم

مودة وصداقة ؛ ذلك لأنهم اتخذوا هذا الدين هزوا ولعبا فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهوعلى كفره مقيم و بعد اليسير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدى الإيمان قولا وهو مستبطن للكفر تلاعبا بالدين واستهزاء به كما قال تعالى عنهم « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » .

وكذلك نهى الله عن موالاة جميع المشركين ، لأن موالاة المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا ـ تكون قوة لهم و إقرارا على شركهم الذى جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب .

وقد نهج الإسلام مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركى العرب فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم وشرع قبول الجزية منهم و إقرارهم على دينهم .

وخصهم هنا بلقب أهل الكتاب ولقب المشركين بالكفار ، وفى آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا لأنهم لوثنيتهم عريقون فى الشرك والكفر أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضا وليس من أصل دينهم .

(واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى وخافوا الله أيها المؤمنون فى موالاة هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا حتى لا يضيع الغرض منها وتكون وهنا لكم ونصرا لهم ـ إن كنتم صادقى الإيمان تحفظون كرامته وتجتنبون مهانته وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته تعالى .

(و إذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) أى و إذا أذن مؤذنكم داعيا إلى الصلاة سخر من دعوتكم إليها من نهيتم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزوا ولعبا .

(ذلك بأنهم قوم لايعقلون) أى ذلك الفعل الذى يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية

إنما كان لجهلهم بحقيقة الأديان وما أوجب فيها من تعظيم الله والثناء عليه بما هو أهله ولو كان عندهم عقل لخشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندىّ ويدعو إلى الصلاة له والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر مؤثر فى النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة فى إرسال الشرائع ويؤمن بالله العلى الكبير.

(قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟) أى قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل تعيبون علينا من شىء وتكرهوننا لأجله ، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلة إنصافكم ، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية والتقاليد الباطلة.

والخلاصة — إنه ما عندنا سوى ذلك ، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، لكنكم لفسقكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عبتم الحسن من غيركم ورضيتم بالقبيح من أنفسكم.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع فى جماعة فسألوه عمن يؤمن به من الرسل ؟ فقال : (أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا نؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم (قل يا أهل الكتاب ... الخ) » .

وفى قوله : (وأن أكثركم فاسقون) دقة فى الأحكام على الأمم والشعوب ، إذ هو يحكم على الكثير أو الأكثر وما عمم إلا استثنى وقد كان فى أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عند ما عرفوا حقيقة أمره وتجلى لهم صدق الداعى إليه

(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) استعمال المثوبة فى الجزاء الحسن أكثر من استعمالها فى الجزاء السيء ، وقيل إن استعمالها فى الجزاء السيء من باب التهكم والازدراء .

أى هل أنبئكم أيها المستهزئون بديننا وأذاننا بما هو شر من عملكم هذا جزاء وثوابا عند الله .

وهذا السؤال يستدعى سؤالا منهم عن ذلك الذى هو شر (ماهو) فأجابهم بقوله

(من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت)
من لعنه الله أى جزاء من لعنه على حد قوله تعالى : « وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ » أى ولـكن البر برّ من اتقى أى إن الذى هو شر من ذلك ثوابا وجزاء جزاء من لعنه الله وغضب عليه الخ .

وفى هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر ـ إلى ما هو أشد منه تبكيتا وتشنيعا عليهم ، ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم وما كان من جزاء الله إياهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم ـ من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت .

أما اللعن فقد ذكر فى عدة مواضع فى القرآن الكريم مع بيان أسبابه ، والغضب الإلهى يستلزم اللعنة واللعنة تلزمه ، إذ هى منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه .

وأما جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم فى سورة البقرة « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » وسيأتى فى سورة الأعراف « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة : وانقرضوا لأن الممسوخ

لا يكون له نسل ، ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، و إنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله « كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »

(أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) أى إن أولئك الذين اتصفوا بما ذكر من المخازى وشنيع الأمور شر مكانا إذ لا مكان لهم فى الآخرة إلا النار وأضل عن سواء الطريق ووسطه الذى لا إفراط فيه ولا تفريط .

ومثل هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين و بصلاتهم وأذانهم إلا الجهل وعمى البصيرة .

(و إذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أى و إذا جاءكم المنافقون من اليهود قالوا للرسول ولكم إننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه ، وحالهم الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم وهم مقيمون على الكفر والضلال وخرجوا وهم كذلك ، فحالهم عند خروجهم كحالهم عند دخولهم لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول وما نزل من الحق ؟ ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء فى سورة البقرة : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ؟ » الآية

(والله أعلم بما يكتمون) حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار والتوسل إلى ذلك بالنفاق والخداع وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب .

وفى قوله: وهم قد خرجوا به تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول، واحتيج إليه لمجيئه على خلاف المعروف لأن من كان يجالس الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة ، ويرى من أحاسن أخلاقه ما يؤثر فى القلوب و يلين قاسيها ــ يرجع عن سوء عقيدته ، وتصفو نفسه من كدورتها إلا إذا كان متعنتا مخادعا ، فإن الذكرى لا تنفعه ، والعظات والزواجر لا تؤثر فيه .

وقد كان الرجل يجىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يريد قتله حتى إذا رآه وسمع

كلامه انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق وآمن به وأحبه ، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيتهم وفساد طريقهم ، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار ووجه همتهم إلى الكيد والخداع ، فلم يكن لديهم عقل يعى ولا يفقه مغزى الحكم والآداب .

(وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت) أى وترى أيها الرسول كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا يسارعون فى الظلم والعدوان وتجاوز الحدود التى ضربها الله للناس ، وفى أكل السحت وكل ما يعود على فاعله بالضرر فى الدين والدنيا ، فهم غارقون فى الإثم والعدوان ، فكلما قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما .

(لبئس ما كانوا يعملون) أى والله ما أقبح هذا العمل الذى يعمله هؤلاء من مسارعتهم فى كل ما يفسد الأخلاق ويدنس النفوس ويقوض نظم المجتمع ، وويل للأمة التى يعيش فيها أمثال هؤلاء ، فهلا نهتهم وزجرتهم عن أفعالهم ؟ ولِمَ لم يقم أحد من علمائها وزهادها وعبادها بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل الشر ويعم الضر ولا زاجر ولا وازع ؟ وإلى هذا أشار بقوله :

(لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) قال فى الكشاف : لا يسمى العامل صانعا ولا العمل صناعة حتى يتمكن فيه العامل ويتدرب وينسب إليه وفاعل المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذى ينهاه فلا شهوة معه فى فعل غيره ، فإذا فرط فى الإنكار على المعصية كان أشد إثما وأعظم جرما من الفاعل لها .

أى هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصى ـ أئمتهم فى التربية والسياسة وعلماء الدين من الأحبار والرهبان ، لبئس ما كانوا يصنعون من الرضى بهذه الأوزار والخطايا ، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

روى عن ابن عباس أنه قال : ما فى القرآن أشد توبيخا من هذه الآية ـ يريد بذلك أنها حجة على العلماء إذا هم قصروا فى الهداية والإرشاد ، وتركوا النهى عن

الشرور والآثام التى تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع ، فحق على العلماء والحكام أن يعتبروا بهذا النعى على اليهود ساسة وعلماء ومربين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظة وذكرى لهم إن نفعت الذكرى .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

لليد لغة معان عدة : الجارحة والنعمة ، تقول لفلان عندى يد أشكره عليها كما قال تعالى: « أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أى ذوى القوة والعقول، والملك كما يقال هذه الضيعة فى يد فلان أى ملكه وقال تعالى : « الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ » أى يملك ذلك ، وغلت أيديهم أى أمسكت وانقبضت عن العطاء ، يداه مبسوطتان أى هو كثير العطاء ، والحرب: ضد السلم فهى تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب ولو بغير قتل ، وبتهييج الفتن والإغراء بالقتل، وإقامة التوراة : العمل بما فيها على أتم الوجوه سواء فى ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان ، وعمل الجوارح والقوى البدنية ؛

وقوله : لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى لوسع الله عليهم موارد الرزق ، والمقتصدة المعتدلة فى أمر الدين فلا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة بعض مخازيهم من مسارعتهم فى الإثم والعدوان وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختل به نظام الأفراد والجماعات وأصبحوا قوما أنانية ، همة كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أى صورة كانت وبأى وجه جمع ، وقد أثر هذا فى أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر تشهد بذلك كتبهم ودينهم .

ذكر هنا أفظع المخازى وأقبحها بجرأتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته وإنكارهم جميل أياديه عندهم وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم توبيخا لهم وتعريفا لنبيه صلى الله عليه وسلم قديم جهلهم واحتجاجا له بأنه مبعوث ورسول إذ أخبر بخفى علومهم ومكنون أخبارهم التى لا يعلمها إلا أحبارهم دون غيرهم من اليهود .

روى ابن إسحق والطبرانى عن ابن عباس قال « قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس للنبى صلى الله عليه وسلم : إن ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله (وقالت اليهود ...) الآية» وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت فى فنحاص رأس يهود بنى قينقاع . وروى ابن جرير عن عكرمة مثله ، وروى عن مجاهد أنهم قالوا : لقد يجهدنا الله يا بنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحره – يريدون أنه ضيق عليهم الرزق . وروى عن ابن عباس أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، لكنهم يقولون إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى ربنا عما يقول الظالمون .

الإيضاح

(وقالت اليهود يد الله مغلولة) أى قال ذلك بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء على التكافل العام بين أفرادها ، وكونها كالشخص الواحد ، وأن الناس فى كل زمان

يعزون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قاله أو فعله سلفهم منذ قرون .

ولا عجب فى صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم فإنا نرى من المسلمين فى عصرنا مثله فى الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق وفى إبّان المصايب .

(غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدى عن العطاء والإمساك عن الإنفاق فى سبيل البر والخير ، وما زالوا أبخل الأمم فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئا إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحا كما دعا عليهم بالطرد والابعاد من رحمته وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين .

وقيل إن المراد بغل الأيدى ربطها إلى الأعناق بالأغلال فى الدنيا أو فى النار أو فيهما ، فقد نقل عن الحسن البصرى أنه قال : يغلون فى الدنيا أسارى وفى الآخرة معذبين بأغلال جهنم، وقال فى تفسير اللعنة : عذبوا فى الدنيا بالجزية وفى الآخرة بالنار .

ثم رد الله عليهم ما قالوه وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء وأن كل مافى العالم من خير هو سَجْلٌ من ذلك الجود فقال :

(بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) أى بل هو الجواد المتصرف على وفق الحكمة وسننه فى الاجتماع .

وتقتير الرزق على بعض العباد لا ينافى سعة الجود وسريانه فى كل الوجود ، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة فى تفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق على حسب السنن التى أقام بها نظام الخلق .

وعبر عن سعة الجود ببسط اليدين، لأن الجواد السخى إذا أراد أن يبالغ فى العطاء جهد استطاعته يعطى بكلتا يديه كما قال الأعشى يمدح جوادا :

يداك يدا جود ، فكف مفيدة وكف إذا ما ضُن بالزاد تنفق

(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى إن هذا الذى أنزلناه عليك أيها النبى من خفى أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشئون كتبهم وحقائق تاريخهم - هو من أعظم الأدلة على نبوتك وكان ينبغى أن يجذبهم إلى الإيمان بك ، إذ لولا النبوة والوحى ما علمت من هذا شيئا ، فلا تعرف الماضى لأنك أمى لم تقرأ الكتب ولا تعرف الحاضر لأنه من مكرهم الخفى وكيدهم السرّى - لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود فى الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان ولم يقرب إلا قليلا منهم ، ووالله ليزيدن ذلك كثيرا منهم طغيانا فى بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به، وقال قتادة حملهم حسد محمد صلى الله عليه وسلم والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه .

(وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أى ألقينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء فهى لا تنقطع أبدا وهى على أشدها الآن فى روسيا وألمانيا وأقلها فى انجلترا وفرنسا .

واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية ولهم النفوذ والتأثير فى السياسة وسائر شئون الاجتماع مبغوضون من جماهير النصارى .

وقد ألف الكثير من الكتب فى فرنسا وغيرها فى التحريض عليهم ، وقد استأصلوا شأفتهم فى ألمانيا وكثير من البلاد المجاورة لها بعد الحرب العظمى وأصبح هذا الشعب عندهم من أقبح شعوب العالم ، وكذلك العداوة بين بعض النصارى وبعض لا تزال آثارها تظهر بين حين وآخر لدى الدول الكبرى القوية فهى دائما فى استعداد لحرب يسحق بها بعضهم بعضا والحرب القائمة الآن بين الدول المسيحية الكبرى أكبر برهان على صدق ذلك .

(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أى كلما هموا بالكيد للرسول وللمؤمنين الصادقين خذلهم الله وهم إما أن يخيبوا فى سعيهم ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض ، وإما أن ينصر الله رسوله والمؤمنين .

والمعروف فى كتب السيرة أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومنهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يؤوى أعداءهم ويساعدهم ككعب بن الأشرف ، وما سبب ذلك إلا الحسد والعصبية وخوف الأحبار والرهبان من إزالة الإسلام لامتيازاتهم العلمية والدينية التى كانوا معروفين بها فى بلاد الحجاز ، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه ، والدليل على ذلك أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين فى الشام والأندلس لما رأوا من عدلهم وإزالة الجور والظلم الذى كان عليه الروم والقوط.

وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب ميلا إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم وزال عنهم ظلم الروم مع كونهم من أهل دينهم ، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون فى العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم .

(ويسعون فى الأرض فسادا) أى إن ما يأتونه من عداوة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشئون العمران والاجتماع بل كانوا يقصدون السعى فى الأرض للفساد ويحاولون الكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمة العرب ويودون ألا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان ، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسدا لهم وحبا فى دوام امتيازهم عليهم .

(والله لا يحب المفسدين) فى الأرض بل يبغضهم ، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم ، لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى فى صلاح الناس وعمران البلاد .

ومن ثم أبطل سبحانه كل ما كاده أولئك القوم للنبى صلى الله عليه وسلم والعرب والإسلام، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد ونصر المسلمين على كل

من ناوأهم ، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم .

(ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم التى اقترفوها ومحونا عنهم ذنوبهم ولم نفضحهم بها ولأدخلناهم جنات ينعمون بها فى الآخرة .

وفى ذلك إعلام من الله بعظم معاصى اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله وفتحه باب التوبة لكل عاص وإن عظمت معاصيه و بلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى ، وإخبار بأن الإيمان لا ينجى إلا إذا شفع بالتقوى ، ومن ثم قال الحسن هذا العمود فأين الأطناب ؟ .

(ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى ولو أقاموا ما فى التوراة والإنجيل المنزلين بنور التوحيد المبشرين بالنبى الذى يأتى من أبناء إسماعيل والذى قال فيه عيسى عليه السلام :

إنه روح الحق الذى يعلمهم كل شىء ، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على هذا النبى الكريم الذى بشرت به كتبهم لوسع الله عليهم رزقهم ولأعطتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها وخيرها كما قال تعالى : « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وفى هذا تنبيه إلى أنّ ما أصابهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم لا من قصور فى فيض الله وعظيم عطائه ، وإشارة إلى أنهم لو أقاموها ما عاندوا النبى ذلك العناد ، فالدين عندهم إنما كان أمانى يتمنونها وبدعا وتقاليد يتوارثونها ، فهم بين غلوّ وتقصير وإفراط وتفريط .

(منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) أى منهم جماعة معتدلة فى أمر دينها لا تفرط ولا تهمل وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأضرابه من

اليهود ، والنجاشى وأصحابه من النصارى ، وكثير منهم أجلاف متعصبون ساء ما يعملون من كفرهم بالله واجتراح المعاصى ، ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكذب اليهود بعيسى ومحمد صلى الله عليهما .

والمعتدلون لا تخلو منهم أمة لكنهم يكثرون فى طور صلاح الأمة وارتقائها ، ويقلون فى طور فسادها وانحلالها ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها ، وقلة من يعمل الصالحات من أخيارها ، وهؤلاء المعتدلون هم السباقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء فى مختلف العصور ، ومن ثم قبل هذا الدينَ الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب ، والمحبين للعلوم والفنون.

روى ابن أبى حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يوشك أن يرفع العلم ، قلت : وكيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : ثكلتك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والانجيل بأيدى اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ، ثم قرأ : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) الآية » .

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال : « ذكر النبى صلى الله عليه وسلم شيئا فقال : وذلك عند ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء » .

ومغزى هذا أن العبرة فى الأديان هو العمل بها والاهتداء بهديها ، وقد كان أهل الكتاب فى ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له ، كما هو شأن المسلمين اليوم .

وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر فى آيات أخرى كقوله تعالى : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » وقوله « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ » الآية .

يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) .

الإيضاح

(يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) أى يأيها الرسول بلغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك مالك أمرك ومبلغك إلى كمالك ، ولا تخش فى ذلك أحدا ولا تخف أن ينالك من ذلك مكروه .

(وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) أى وإن لم تفعل ما أمرت به من التبليغ لما أنزل إليك بأن كتمته ولو مؤقتا خوفا من الأذى بالقول أو بالفعل ـ فحسبك جرما أنك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لأجله ، وهو تبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

والحكمة فى التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمان

كله ، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شىء مما أمرهم الله بتبليغه وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ - الحكمة فى ذلك بالنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه ولو إلى حين بتأخير شىء عن وقته على سبيل الاجتهاد ، ولولا هذا النص لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحى إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله .

والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأى والفهم ، ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحى غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم لا يتفق مع الدين فى شىء ولا يعول على ماروره من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة فى هذا الباب .

والحق الذى لاشبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن و بينه ولم يخص أحدا بشىء من علم الدين ، وأنه لا امتياز لأحد عن أحد فى علم الدين إلا بفهم القرآن فهما يتوسل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار فى الصدر الأول ، و بمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها ، ومعرفة علوم الكون وشئون البشر وسنن الله فى الخلق .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أىُّ آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس فى الموسم ، فنزل علىّ جبريل فقال : (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) الآية قال - فقمت عند العقبة فقلت : أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالات ربى ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة - قال صلى الله عليه وسلم فما بقى رجل ولا أمة ولا صبى إلا يرمون علىّ بالتراب والحجارة

ويقولون : كذاب صابىء . فعرض علىّ عارض فقال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، وانصرنى عليهم أن يجيبونى إلى طاعتك ، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه » .

(والله يعصمك من الناس) أى يمنعك من فتكهم مأخوذ من عصام القربة وهو ماتوكأ به أى يربط به فمها من سير جلد أو خيط ، والناس هم الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحى بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم والنعى عليهم وعلى سلفهم ، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء ، ومن ثم كان المشركون يتصدون لإيذائه صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، وائتمروا به بعد موت أبى طالب وقرروا قتله فى دار الندوة ولكن الله تعالى عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة .

روى الترمذى وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن بضعة رجال من الصحابة «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحرس فى مكة قبل نزول هذه الآية فقال : ياعم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث » .

وقد وضعت هذه الآية وهى مكية فى سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى لتدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عرضة لإيذائهم أيضا وأن الله تعالى عصمه من كيدهم ولتذكر بما كان من إيذاء مشركى قومه من قبلهم .

(إن الله لا يهدى القوم الكافرين) أى إنه تعالى لا يهدى أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون بل يكونون خائبين وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

(قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أى قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى (لستم على شىء) يعتدّ به من أمر الدين ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبيين .

(حتى تقيموا التوراة والإنجيل) فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح وفيما بشرا به من بعثة النبي الذى يجىء من ولد إسماعيل الذى سماه المسيح روح الحق والبارِقْليط .

(وما أنزل إليكم من ربكم) على لسان محمد وهو القرآن المجيد فهو الذى أكمل به دين الأنبياء والمرسلين على حسب سنن الله فى الكون .

(وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى وأقسم بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذى أكمل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا فى تكذيبهم وكفرا على كفرهم، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان إذ كانوا على تقاليد وثنية وأعمال وعادات سخيفة ، فلم يكن لهم من الدين الذى يدينون به ما يقربهم إلى فهم حقيقة الإسلام ليعلموا أن دين الله واحد وأن ما سبق بدء وهذا إتمام .

أما غير الكثير وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأن من أنزل عليه هو النبي المبشر به فى كتبهم فيسارعون إلى الإيمان به على حسب حظهم من سلامة الوجدان واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان .

(فلا تأس على القوم الكافرين) قال الراغب : الأسى الحزن ، وأصله إتباع الفائت بالغم ، أى فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين ، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمنى قومك ومن مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم .

والعبرة للمسلم من هذه الآية أن يعلم أنه لا يكون على شىء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن وما أنزل إليه من ربه فيه ويهتدى بهديه ، فحجة الله على عباده واحدة فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ماورثوه من تلك التقاليد التى صدتهم عما عندهم من وحى الله ، فإنه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابنا

والناس عن مثل هذا غافلون و إلى حكمة الدين ومقاصده لاينظرون ، و يحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله والذين دخلوا اليهودية والصابئين الذين يعبدون الملائكة و يصلون إلى غير القبلة والنصارى ، من أخلص منهم الإيمان بما ذكر دواما وثباتا كما فى المؤمنين المخلصين أو إيجادا و إنشاء كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى ، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولاهم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه .

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله لاالوسائل منه ولاالمقاصد ، فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذى كان عليه سلفهم الصالح ولاهم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ، إلا قليلا منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التى شرعها الأحبار والرهبان ، كما أن فيها ترغيبا لمن عدا من ذكروا فى الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أخذ الميثاق على بنى إسرائيل وبعث فيهم النقباء أعاد التذكير به هنا مرة أخرى وبين عتوهم وشدة تمردهم وما كان من سوء معاملتهم لأنبيائهم .

الإيضاح

(لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون) الميثاق هو العهد الموثق ، وقد أخذ الله عليهم العهد فى التوراة بتوحيده واتباع الأحكام التى شرعها لهدى خلقه وتحليهم بحلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وقد نقضوا هذا الميثاق كما تقدم أول السورة وعاملوا الرسل تلك المعاملة ــ وهو أنه كلما جاءهم رسول بشىء لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد الأمرين إما التكذيب المستلزم للاعراض والعصيان وإما القتل وسفك الدماء .

وخلاصة ذلك ــ إنهم بلغوا من الفساد واتباع الأهواء أخشنها مركبا وأشدها

عتوا وضلالا حتى لم يعد يؤثر فى قلوبهم وعظ الرسل ولا هديهم بل صار ذلك مغريا لهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة البررة والسادة الأخيار .

(وحسبوا ألا تكون فتنة) الفتنة الاختبار بشدائد الأمور كتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد أى وظنوا ظنا قويا تمكن من نفوسهم أنه لا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد لأنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب .

(فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم) أى فعموا عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه مرشدة إلى عقابه للأمم المفسدة الظالمة ، وعما وضعه من السنن فى خلقه مصدقا لذلك ، وصموا عن سماع المواعظ التى جاءهم بها أولئك الرسل وأنذروهم بالعقاب إذا هم خالفوها ونقضوا الميثاق وخرجوا عن هدى الدين ، وظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم وساروا فى غيهم ، وانهمكوا فى ضلالهم ، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار ، فجاس البابليون خلال ديارهم وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا أموالهم وسبوا أولادهم ونساءهم وسلبوهم أموالهم وثلوا عروش ملكهم ، ثم رحمهم الله وتاب عليهم حين أقلعوا عن الفساد وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس إذ جاء إلى بيت المقدس وعمره وردّ من بقى من بنى إسرائيل فى أسر بُخْتُنَصَّرَ إلى وطنهم ورجع من تفرق منهم فى الأقطار فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا .

ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم فى الأرض وقتلوا الأنبياء بغير حق فقتلوا زكريا وإشعيا وأرادوا قتل عيسى عليه السلام ، فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فأزالوا ملكهم واستقلالهم .

وفى قوله (كثير منهم) إشارة إلى أن عمى البصيرة والصمم عن المواعظ لم يكن

للجميع بل كان للكثير منهم ، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذى لا يؤثر فى صلاح ولا فساد ومن ثم قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(والله بصير بما يعملون) لنبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدبير الإيقاع به وتأليب القبائل والشعوب المختلفة لتكون يدا واحدة للفتك به ، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى وأنهم عموا وصموا مرة أخرى فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات وسيعاقبهم الله على ذلك بمثل ماعاقبهم به من قبل وينكل بهم أشد النكال ، ويذيقهم أنواع الوبال .

وبعد أن عدد قبائح اليهود ومخازيهم شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة وآراءهم الزائفة ، فقال :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) أى أقسم إن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح بن مريم - قد كفروا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ هم فى إطرائه ومدحه غلوا أشد من غلوّ اليهود فى الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتانا عظيما ؛ وقد صارت هذه المقالة هى العقيدة الشائعة عندهم ، ومن عدل عنها عدّ مارقا من الدين فقالوا إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها (الأقانيم الثلاثة) وهى الآب والابن وروح القدس ، فالمسيح هو الابن والله هو الآب وقد حل الآب فى الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخرين .

وخلاصة ذلك - الله هو المسيح ، والمسيح هو الله كما يزعمون .

(وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون : فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفا بأنه ربه وربهم ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظا فى الأناجيل التى كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه ، ففى انجيل يوحنا

(وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) فدين المسيح مبنى على التوحيد المحض وهو دين الله الذى أرسل به جميع رسله .

وفى هذه المقالة تنبيه إلى ماهو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وغيره فى أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .

وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص ، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ، فقال :

(إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) أى إن كل من يشرك بالله شيئا من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك فيجعله ندّا له أو متحدا به أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضرر أو يزعم أنه يقربه إليه زلفى فيتخذه شفيعا ليؤثر فى إرادته تعالى وعلمه ، ويحمله على شىء غير ما سبق به علمه وخصصته إرادته فى الأزل – من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة فى سابق علمه ، ويقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار التى هى دار العذاب والذل والهوان – وما للظالمين لأنفسهم بشركهم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع ينقذهم مما يحل بهم « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » .

وفى هذا إيماء إلى أن النصارى كانوا يتكلون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أى لقد كفر الذين قالوا إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما – ثالث أقانيم ثلاثة ، أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، وزوج متتبعة بينهما .

والخلاصة — إن الفرق ثلاثة : (١) إن إلههم ثالث ثلاثة (٢) إن الله هو المسيح بن مريم (٣) إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله .

والمتأخرون من النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة وأن كل واحد منها عين الآخر فالآب عين الابن وعين روح القدس ، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وروح القدس أيضا ، وقد ذكرنا فيما سلف أن النصارى أخذوا عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين .

ثم رد الله عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة ، فقال :

(وما من إله إلا إله واحد) أى لا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولا فى صفاته ، فليس ثَمَّ تعدد ذوات وأعيان ولا تعدد أجناس وأنواع ولا تعدد جزئيات وأجزاء .

(وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه ، ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبنهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم .

وفى الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها .

ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البينات وقامت عليهم الحجج المبطلة له والنذر بالعذاب المرتب عليه ، فقال :

(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟) أى أيسمعون ما ذكر من التفنيد لآرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد واستغفار الله عما فرط منهم ، والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات .

(ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) أى ليس المسيح إلا رسولا من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات ، وأمه صديقة

فلها فى الفضل مرتبة تلى مرتبة الأنبياء والمرسلين ، ونحو الآية قوله : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » .

أما حقيقتهما النوعية والجنسية فهى مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما، فهما يأكلان الطعام ليقيما بنيتهما ويمدا حياتهما لئلا ينحل بدنهما ويهلكا، وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات فلا يمكن أن يكون كل منهما إلها خالقا ولا ربا معبودا ، ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه ويحتقر جنسه ويرفع بعض المخلوقات المساوية له فى الماهية والمشخصات والممتازة بميزات عرضية فيجعل نفسه عبدا لها ويسميها آلهة أو أربابا .

وبعد أن بين حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة من الريب ، تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ولا يتأمل فيما هو عليه من إفن الرأى والخطأ ، فقال :

(انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) الآيات هى الدلائل القاطعة ببطلان مايدعون ، ويؤفكون أى يصرفون عن التأمل فيها لسوء استعدادهم وخبث نفوسهم .

أى انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر ، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات فى الوضوح على بطلان ما يدعون فى أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها ومن مباديها إلى غاياتها فكأنهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا

عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) .

شرح المفردات

الغلو : الإفراط وتجاوز الحد، والأهواء:الآراء التى تدعو إليها الشهوة دون الحجة، واللعن : الحرمان من لطف الله وعنايته ، يتولون الذين كفروا أى يوالونهم و يزينون لهم أهواءهم .

الإيضاح

(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم ممن عبدوا غير الله ـ أتعبدون من دونه أى متجاوزين عبادته وحده ـ مالا يملك لكم ضرا تخشونه أن يعاقبكم به إذا أنتم تركتم عبادته ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه ؟ .

وفى هذا إيماء إلى دحض مقالتهم بالحجة والدليل ، فإن اليهود وقد كانوا يعادون المسيح ويقصدونه بالسوء لم يقدر على الإضرار بهم ، وأنصاره وصحابته مع شديد محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم ، والعاجز عن الضر والنفع كيف يعقل أن يكون إلها ؟

وإذ كان قول النصارى فى المسيح من أشد أنواع الغلو فى الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم وكان إيذاء اليهود له وسعيهم فى قتله من الغلوّ فى الجمود على تقاليد الدين التى ابتدعوها واتباع أهوائهم بلا علم، وكان هذا الغلوّ هو الذى دعاهم إلى قتل زكريا واشعيا قال تعالى :

(يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) سواء السبيل وسطه الذى لا غلوّ فيه ولا تفريط وهو الإسلام ، وضلالهم ترك شريعتهم واتباعهم الأهواء الفاسدة الموافقة لشهوات النفوس الجامحة بها إلى الحصول على اللذات والإعراض عن الدين جانبا وضلالهم عنه هو إعراضهم عن اتباعه .

نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا فى عصر التنزيل عن الغلو الذى كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم ، وعن التقليد الذى كان سبب ضلالهم ، إذ هم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا سنن الرسل والنبيين والصالحين من قبلهم ، لأن كل أولئك كانوا موحدين وكانوا ينكرون الشرك والغلو فى الدين ، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنَسية المستحدثة من بعدهم كشرع عبادات لم يأذن بها الله ، وتحريم مالم يحرمه الله من الطيبات بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة فى التنسك والزهد أو رياء وسمعة ، وجعل الأنبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله فى الأسباب والمسببات الكسبية ، ولذا جعلوهم آلهة يعبدون من دون الله أو مع الله .

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم فيه وسيكون سبب شقائهم وعذابهم فى الآخرة إن لم يرجعوا عنه وينيبوا إلى الله منه .

وبعد أن بين الله ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به ، فقال :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون) أى لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل فى الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين فقد لعن داود عليه السلام من اعتدى منهم فى السبت أو لعن العاصين المعتدين عامة ، وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ، وما سبب ذلك اللعن الذى امتد واستمر إلا تماديهم فى العصيان وتمردهم على الأديان كما يدل عليه قوله : وكانوا يعتدون .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أسباب استمرارهم على العصيان وتعدى الحدود فقال :

(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى كان من دأبهم ألا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقترفه مهما قبح وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين وسياج الفضائل والآداب ، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم ورآهم الغوغاء من الناس قلدوهم فيه وزال قبحه من نفوسهم وصار عادة لهم وزال سلطان الدين من قلوبهم وتركت أحكامه وراءهم ظهريا .

وفى الآية إيماء إلى فشو المنكرات فيهم ، وانتشار مفاسدها بينهم ، إذ لولا ذلك ما كان ترك التناهى شأنا من شئونهم وعادة من عاداتهم .

(لبئس ما كانوا يفعلون) هذا تقبيح لسوء فعلهم وتعجب منه وذم لهم على اقتراف بعضهم للمنكرات و إصرارهم عليها وسكوت آخرين ورضاهم بها ، وفى سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حل ببنى إسرائيل .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ـ ثم قال : (لعن الذين كفروا ـ إلى قوله فاسقون) ثم قال صلى الله عليه وسلم : كلا ، والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم

ولتأطرنه (تعطفنه) على الحق أطرا ولتقسرنه على الحق قسرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم » .

وأخرج الخطيب من طريق أبى سلمة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفس محمد بيده ليخرجن من أمتى ناس من قبورهم فى صورة القردة والخنازير بما داهنوا أهل المعاصى وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون » .

والآثار فى هذا الباب كثيرة وفيها وعيد عظيم على ترك التناهى ، فهل من مدّكر وإلى متى نعرض عن أوامر ديننا ولا نرعوى عن غينا ولا نتبع أوامر شرعنا ؟ .

وبعد أن ذكر الله لنبيه أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم ، فقال :

(ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) أى ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركى قومك ويحالفونهم عليك ويحرضونهم على قتالك ، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه وتشهد لهم بصدق الرسالة ، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا يعبدون إلها واحدا ، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ما فعلوا ذلك ولا دار هذا بخاطرهم وما استحبوا العمى على الهدى ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

وقد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة ولا استجابوا لهم كلمة .

(لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) أى بئس شيئا قدموه لأنفسهم فى آخرتهم ـ الأعمال التى أوجبت سخط الله وعظيم غضبه ، وسيجزون بها شر الجزاء إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفا ويخلدون فى النار أبدا ، فالنجاة منه إنما تكون برضا الله عن عبده ، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه .

(ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) أى ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركى العرب - يؤمنون بالنبى الذى يدعون اتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والبينات ، لما اتخذوا أولئك الكافرين ممن يعبدون الأوثان والأصنام أولياء وأنصارا إذ كانت العقيدة الدينية تصدهم عن ذلك وتدفع عنهم هذه الآصار والآثام التى يقترفونها .

والخلاصة — إن هـذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله والتعاون على حربه وإبطال دعوته والتنكيل بمن آمن به .

ويرى مجاهد أن المراد بالذين كفروا المنافقون أى إن أولئك المنافقين كفار ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم ، فتوليهم إياهم من أعظم الأدلة على أنهم يسترون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا ، وكان اليهود يتولون المشركين والمنافقين جميعا لاشتراكهم فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقد بين الله أسباب هذه الألفة والعلة الجامعة بينهم فقال :

(ولكن كثيرا منهم فاسقون) أى ولكن كثيرا منهم متمردون فى النفاق خارجون عن حظيرة الدين لا يريدون إلا الرياسة والجاه ويسعون إلى تحصيلهما من أى طريق قدروا عليه ، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون إذ لا عبرة بالقليل فى سيرة الأمة وأعمالها .

وكان الفراغ من مسودة تفسير هـذا الجزء فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، ولله الحمد أولا وآخرا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .